حَافِظُ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ

الطبعة الأولى

1446 هـ / 2025 م

اسـم الكتـابـ: حَافِظُ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ (أَبُو عِمْرَانَ الْفَاسِيُّ)

ا لمؤ لـف : محمّد بودجبير الورياغلي

موضوع الكتاب: سرديّة تاريخيّة

عدد الصفحات: 108 صفحة

عـدد المـلازم: 6.75 ملزمة

مقـاس الكتـاب: 17 x 24

عـدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقـم الإيـداع: 3776 / 2025

الترقيـم الدولي: 978-977-8796-32-2

القاهرة - جمهورية مصر العربية

01012355714

01152806533

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

محفوظة جميع الحقوق

حَافِظُ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ

(أَبُو عِمْرَانَ الْفَاسِيُّ)

سرديّة تاريخيّة

محمّد بودجبير الورياغليّ

دار البشير للثقافة والعلوم

أعظم الشّخصيات في تاريخ المغرب

(إلماعات من تاريخ المغرب وحضارته بعيون أعلامه)

إهداء

إِلَى مَنْ قُدَّتْ مِنْ صَخْرِ الْجَبَلِ، فَجَاءَتْ قَاسِيَةً كَالْأَلْمَاسِ...

أُمِّي رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا.

حَافِظُ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ

(أَبُو عِمْرَانَ الْفَاسِيُّ)

(عاش في الفترة ما بين عام ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م وعام ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م)

أبو عمران الفاسيّ (صورة متخيّلة)

قال عياض:

{وَطَارَتْ فَتَاوِيهِ فِي الْمُشْرِقِ وَالْمُغْرِبِ، وَاعْتَنَى النَّاسُ بِقَوْلِهِ}

ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٥.

قال حاتم بن محمد الطّرابلسيّ:

{وَلَمْ أَلْقَ أَحَدًا أَوْسَعَ مِنْهُ عِلْمًا وَلَا أَكْثَرَ رِوَايَةً}

ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٦.

قال ابن عمار:

{كَانَ إِمَامًا فِي كُلِّ عِلْمٍ، نَافِذًا فِي عِلْمِ الْأُصُولِ، مَقْطُوعًا بِإِمَامَتِهِ وَفَضْلِهِ}

ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٧.

تقديم

في الرّبع الأخير من القرن الرّابع الهجريّ، استقرّ الحكم بمدينة فاس وبكثير من جهات المغرب للمغراويّين واليفرانيّين، وقد كانت هذه القبائل الزّناتيّة البدويّة المتوثّبة والطّامعة في استغلال الفراغ السّياسيّ الحاصل في المغرب عقب انحلال العصبيّات الكبرى وحملات التّفكيك التي قام كلّ من الفاطميّين وأعدائهم أمويّي الأندلس غير مالكة لأيّ نوع من أنواع المشروعيّة السّياسيّة، فانتزت على المدن الكبرى، وتسابقت على الدّخول تحت الحماية الأندلسيّة، وأعادت البلاد إلى حالة ما قبل ثورة ميسرة المضغريّ، حالة التّبعيّة للقوى الإقليميّة التي تحمل مشاريع توسّعيّة، فكانت بصنيعها هذا أسوأ ممثّل لحالة الشّتات والتّمزّق التي كانت البلاد تتجرّع ويلاتها على جميع الأصعدة.

في ظلّ هذه الظّروف العسيرة كان من الطّبيعيّ أن تظهر نخبة فاسدة ضالعة في عمليّة التّجريف السّياسيّ التي تولّى كبرها أمويّو الأندلس وقادها عملاؤهم المغراويّون خاصّة، كما كان من الطّبيعيّ أيضًا تشكّل نخبة مضادّة، غير راضية بهذا الدّون، ساخطة على ما آلت إليه البلاد من تردٍّ وانحطاط، ومتطلّعة إلى إيجاد حلّ لهذه الأزمة الشّديدة.

أبرز شخصيّة في هذه النّخبة المضادّة التي ستختمر بالانتقال من مرحلة المعارضة أو التّنظير إلى مرحلة الفعل والتّغيير مع عبد الله ياسين هي بلا أدنى التباس شخصيّة أبي عمران الفاسيّ.

كان أبو عمران في زمانه أبرز وجه علميّ في كلّ بلاد المغرب، على أنّه رغم نبوغه العلميّ وشهرته المدويّة كان عالمًا مستقلًّا تمامًا، إذ لم يكن تابعًا لأيّ بلاط أو سلطة كما

كان الحال مع جمهور الفقهاء والعلماء المتوزّعين في تبعيّتهم وولائهم لسلطة أو بلاط أو أمير أو وزير يغدق العطايا ويسمح بإطلاق اليد واللّسان، الأمر الذي أكسبه سلطة التّأثير في المجتمع الذي كان كثير من أفراده خاصّة بالمغرب ناقمين على الوضع المأزوم والاستبداد الأعمى الذي تسلّط عليه.

صحيح أنّ أبا عمران الفاسيّ الذي عُرف في المقام الأوّل كعالم مشهور وفقيه متضلّع وحافظ لا يشقّ له غبار ومقدّم على جلّ علماء عصره في كلّ بلاد المغرب في التّدريس والرّواية والإفتاء لم تكن له مشاركة سياسيّة مباشرة في الأحداث التي عرفتها البلاد سواء بالمغرب أو بإفريقيّة، إلّا أنّ الرّجل بحكم موقعه كمعلّم ومربٍّ ومصلح وفقيه فاعل بشكل عضويّ في مجتمعه حمل همًّا إصلاحيًّا ثقيلًا، ووعيًا سياسيًّا عميقًا، وموقفًا واضحًا من كلّ ما كان يجري في المغرب من أحداث سياسيّة، من مبدأ أنّ السّياسة هي القوّة التّنفيذيّة التي تنزّل المنظومة النّظريّة الفقهيّة.

هذا الموقف السّياسيّ الواضح هو ما أدّى به للاصطدام بالسّلطة المغراويّة بفاس ودفعه لهجرة مدينته والانتقال إلى القيروان حيث استقرّ واستطاع بثّ نظريّاته بحرّيّة بين طلبته الوافدين. وذاك الهمّ الإصلاحيّ هو ما انتقل إلى شبكة تلاميذه التي توزّعت على كلّ الجغرافيا المغربيّة. أمّا الوعيّ السّياسيّ، فتجلّى بوضوح في توجيهه ليحيى بن إبراهيم الگداليّ نحو رباط يترأّس عمليتيّ التّربيّة والتّعليم فيه أحد أبرز تلاميذه وأصلبهم وهو واگّاگ بن زلّو اللّمطيّ.

هذا التّوجيه المنسّق المدروس الذي لم يكن اعتباطيًّا أو ضربة حظّ من أبي عمران يعتبر باكورة عمل تنظيريّ إصلاحيّ كبير دشّنه الفقيه الفاسيّ وتلاميذه من بعده، وانتهى بظهور الحركة المرابطيّة التي استطاعت بناءً على نظريّات فقهيّة صارمة وضع حدّ لحالة التّمزّق والتّشرذم التي كانت البلاد تعاني منها، وتأسيس أوّل كيان وحدويّ في تاريخ المغرب.

ما أحوجنا اليوم ونحن نرى المثقّفين والمحسوبين على العلم بين منعزل عن محيطه، أو مستسلّم للوضع القائم، أو متنازل عن وظيفته، أو منبطح للسّلطة، أو ضالع في مشاريع التّدجين وترسيخ الجمود إلى استدعاء أبي عمران، هذا المثال العظيم لما يجب أن يحمله الفقيه والعالم والمثقّف من قيم وأخلاق، وما يجب أن يمثّله من مواقف ثابتة، وما يجب أن يتحمّله من واجب الإصلاح والتّغيير.

السّرديّة

"العلم أشرف المطالب، وأسمى الرّغائب، وأنفس الغايات، والوسيلة المُحْكَمة التي ينظر بها الإنسان في الأمور ويدبّر بها الشّؤون والتّكاليف. بالعلم تنتظم الحياة، وتَصلُح أحوال النّاس، وبالعلم تُجتنب الفتن، ويُسلَك الطّريق المُنجي، وبه لا بغيره تنشأ الأمم، ويعلو شأنها، وتعتزّ كلمتها، وترخي سلطانها على أعدائها.

أفسمعتم يومًا يا بَنيَّ عن أمّة ازدهرت بإهمالها العلم والعلماء؟! أم هل سمعتم عن أمّة اهتمّت بالعلم وقدّمت العلماء، فلم تزدهر أخلاقها، وتحسُن أمزجتها، وتزهر ثقافتها، وتشعّ مدنيّتها، وتكثر أرزاقها، وتنبغ سياستها، ويقوى جيشها، وترتفع رايتها؟! إنّ سلطة العلم هي سلطة العقل، وسلطة المزاج هي سلطة الجهل. وفضل العالم على الجاهل كفضل الماء على النّبات، إذ لا حياة لها إلّا به، فإن كان في النّاس عالم ففيهم كلّ خير، إن قدّموه، حازوا بعلمه كلّ المفاخر والعُلى، وإن غلب على النّاس أجهلهم فقدّموه وقلّدوه القيادة والرّياسة، حلّت بساحتهم الشّقاوة، وأسرع إليهم البوار".

ممّا علق بوعيي وأنا صغير من كلام والدي.

لم يكن نزوعي المبكّر إلى العلم صدفةً تجشّمت الأيّام مشقّة إيجادها في طريقي، بل إرثًا ورثته عن آبائي، وتأثيرًا تواطأ الضّمير والذّاكرة والمخيّلة والدّهشة والرّغبة -مع كلمات والدي عن فضل العلم وعلوّ شأوه- على نقشه في كينونتي وغرسه في تخاريم خلاياي.

كان والدي رجلًا متّصفًا بصفة العلماء وسمتهم، من مروءة ونزاهة وفضل وشرف نفس، فلم يكن له طمع في أن أصبح صاحب حرفة أو مهنة أو تجارة، وأرجى ما كان

يرجـوه أن أسـلك سـبيل طلب العلم، لأجل ذلـك كان يكثر من تذكـيري بفضل العلم والتّعلّم، ويدلّني على الطّريق إليه والغاية منه، فنشأت محبًّا للعلم مقدِّرًا لمنازله ومقاماته، أسـتطيب حديثه وحفظه والتّفكّر فيه. وأسـتطيع الجزم أنّي وإن جعل الله لي حافظةً قويّةً وطبعًـا ميّالًا للتّعلّم والبحث والسّـؤال والتّفكّر في بواطن الأمـور، وإعمال الذّهن حتّى فيما قد يبدو من حقير المسـائل، فإنّ لوالدي وللبيت الذي نشـأت فيه فضلًا في توجيهي المبكّـر والمـدروس نحو طلب العلم، إذ لولاه ما أعلم ما كان الله صانعًا بي، وفي أيّة أودية الدّنيا الكثيرة تكون فِتنتي، فالحمد لله الذي خصّني بالنسبة إليه، وأكرمني بأبوّته لي.

كما لا يسـعني غمط فضـل والدتي عليّ، فهي وإن لم تكن متمكّنـةً من العلوم متصرّفةً فيهـا، فقد كانـت عارفةً بقدر العلم، مُجلّةً له، مُحبةً لكلّ سـماع وخبر يمتّ به وبأهله، ولا يغيـب عن ذاكرتي كيف كانت -رضي الله عنها وأسـكنها فسـيح الجنان- وهي تلبسـني عباءتي وتشدّ حزامي وتضع العمامة على رأسي وأنا صغير قبل أن توجّهني نحو الكُتّاب، تعلّـق في ضمـيري قبل أذني عبارات من قبيل: «يا لأناقة هذا الشّـيخ الصّغير»، «يا سـعد داري بهذا القمر المنير»، «أرجو من الله أن تكون دعوتي المستجابة وبشراي المؤكّدة وعملي الصالح الموصول يا موسى».

في هذا البيت الطّيب[1] ولدت، عام ثمانية وستّين وثلاثمائة للهجرة النّبويّة المطهّرة[2]،

١ـ يقول ابن الأحمر في أسرة أبي عمران: (وبيت بني أبي حاج بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة، تولى بعـض أفراده القضـاء في فاس وغيرها، ولهم بالمدينة زقاق معروف باسـمهم إلـى الآن). بيوتات فاس الكبرى ص ٤٤.

٢ـ هناك خلاف في سنة مولده على قولين: الأول عام ٣٦٥هـ، وقد روي عن أبي عمرو الداني، والثاني عام ٣٦٨هـ، وهو المروي عن ابن عبد البر. وقد نقل الروايتين معًا أكثر من ترجم لأبي عمران الفاسي. انظر: ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٥٢؛ الصلة ج ٣ ص ٨٨٢؛ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٣؛ سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٥٤٦. ونجـد أن ابـن فرحون قد أخذ برواية الداني. انظر: الديباج المذهب ج ٢ ص ٣٣٨. فيما أخـذ الضبـي وابن الجزري والذهبي وابن العماد برواية ابن عبـد البر، وهي الرواية التي اخترناها. انظر: بغية الملتمس ج ٢ ص ٦٠٧ - ج ٢ ص ٤٠٢؛ غاية النهاية ج ٢ ص ٢٨٠؛ معرفة القراء الكبار ج ٢ ص ٧٣٨؛ شذرات الذهب ج ٥ ص ١٥٣.

لوالـدي ومعلّمـي وشـيخي وأسـتاذي الأوّل، عيسـى بـن أبي حـاج بن وليـم بن الخير الغفجوميّ[1]، وانتُخب لي من الأسـماء موسـى. ورغم انتسـاب بيتنـا لقبيلة غفجوم[2]، فإنّنا لم نشـتهر بالغفجوميّين، لاسـتقرار أسـلافنا بفاس مدّةً كافيةً لاضمحلال انتسـابنا القبليّ، لأجل ذلك لم يلتصق بي اسـم غفجوم بعد أن غادرت فاس بقدر التصاقي باسـم المدينـة التي ولدت ونشـأت بها حتّى اعتُبرت من أصليِّيها، وكيـف لا أُعتبر من أصليِّيها وقد ولدت ونشـأت بها أنا وأسرتي، بحيث لا نعرف لأنفسـنا بلدًا سـواها، ولا مسـتقرًّا إلَّا إياهـا. فصرت أُنسَـب إلى فاس وأُلقّـب بالفاسيّ في كلّ مدينـة أزورها، وهو لقب في الحقيقة لم أختصّ به، بل التصق بكلّ الطّلبة الفاسيّين الذين خرجوا من فاس طلبًا للعلم في الأندلـس أو القـيروان، وكذلك كان الحال مع سـائر أضرابنا من بقيّـة المدن والقبائل بالمغـرب أو الأندلـس، فالتّمايـز بيننا إنّما كان نسـبةً للمدينة أو القبيلة التـي جاء منها كل واحد منّا.

***

١ـ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٣.

٢ـ اختلـف فـي غفْگـوم، فقيل: هي فخذ من زناتـة، وقيل: من هـوارة، وقيل: من صنهاجـة. راجع: ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٣؛ فتاوى البرزلي ج ١ ص ٢٢١. والغالب أنها من زناتة لانتسـاب الشـاعر الشهير أبـي العبـاس أحمد بن عبد السـلام الجراوي (ت ٦٠٩هـ) إليها. راجـع: أزهار الرياض ج ٢ ص ٣٦٥. وجـراوة كمـا هـو معلوم زناتيـة. راجع: ابن خلـدون ج ٧ ص ١٢. فتكـون غفجوم عندئذ مـن بطونها. وغفجـوم –حسـب محقـق كتاب التشـوف– هي آيـت أوغْفْگمّي (بجيـم معجمة عليها سـكون وضم) الواقعـة ببـلاد تـادلا، ومعناها فـي اللغة الأمازيغية: المسـتوطنون علـى الممر أو المضيـق أو المدخل. راجع: التشوف ص ٨٧ مع الهوامش.

بفاس نشـأت، ومن عبقها مـلأت صدري، وفي أزقّتها لعبت مـع أقراني، وكم كانت فاس فريدةً بتنوّعها الباذخ والآسر في آن من حيث الوجوه والأنماط والأصوات والألوان والرّوائح، فلأهل عدوة القرويّين وجه ومظهر ولكنة معلومة، ولأهل عدوة الأندلسيّين كذلـك وجه ومظهـر ولكنـة[1]، ولـلأَوْرْبِيِ[2] مميّزات، وللغـماريّ ما يميّزه، وللسّـوسّي والمصموديّ والزّناتيّ والمكناسيّ وغيرهم ما يميّز كلًّا منهم عن صاحبه في صفته وملبسه ولغته[3]، وللمسـلم ما يميّزه عن اليهوديّ صفةً وهيئةً ولكنةً، إلاّ أنّ شـيئًا مشتركًا بينهم جميعًا لا تخطئه العين، شيئًا موحّدًا، شيئًا يتشكّل ببطء، لكن بثقة وعمق وأصالة كبيرة.

ومـا كدت أفقـه وأعقل حتّـى شرع والـدي في تحفيظي القـرآن الكريـم، كونه أصل التّعليم، والقاعدة التي تُبنى عليها الملكات والمعارف، وعلى يديه ختمت ختمتي الأولى، ثمّ أحالني بعد ذلك على كُتّاب معلّم آخر، فختمت على يديه ختمتين استوثق بهما حفظي، وتمّت معرفتي بالقرآن الكريم حفظًا ورسـمًا وقـراءةً، على العادة الجارية عند المغاربة بألّا يخلطوا بالقرآن شيئًا في مجالس التّعليم، لا من فقه ولا من حديث ولا من أصول ولا من أدب ولا مـن غيرها، حتى يحذق الطّالب فيه، فينتقل لما بعده وهو متمكّن من الأصل أو ينقطـع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب عن العلم جملةً، وتتجلّى نجاعة هذا المنهج في أنّ أهل المغرب أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم[4].

وبعـد فراغـي من حفظ القـرآن الكريم وضبطـه، أكببت على العبّ مـن منابع العلم

١ـ انظر: الإشارة التي أوردها البكري ج ٢ ص ٣٠٠.

٢ـ نسبة إلى قبيلة أَوَرْبَة، القبيلة التي تأسست المدينة على أراضيها.

٣ـ يصف ابن الخطيب التعدد اللغوي بفاس في القرن الثامن الهجري بقوله: (وألسـنتها باللغات المختلفة لاحنة). ريحانة الكتاب ج ٢ ص ٣١٢.

٤ـ وما يزال هذا المنهج التعليمي معمولًا به إلى يومنا هذا في سائر جهات المغرب مع بعض الاستثناءات. انظر وقارن مع المنهج الأندلسي والإفريقي في تعليم الولدان: المقدمة ج ٢ ص ٣٥٢.

الموجودة بمدينة فاس[1]، وقد كان بفاس جمهور من العلماء ممّن تتلمذوا على الشّيخ جبر الله بن القاسم[2]، والشّيخ ابن سعادة[3]، والإمام العلم الكبير دَرَّاس بن إسماعيل[4]، وغير هؤلاء طائفة من الفضلاء[5]، فضلاً عمّن يمرّ بمدينتنا من العلماء والطّلبة في طريقهم نحو الأندلس ومنها، أو أولئك الأفّاقين المتّجهين نحو القيروان أو المشرق، فأخذت عنهم شيئًا من الفقه والحديث والقراءات والعربيّة وتربية النّفس وتزكيتها، وكم كنت أتطفّل بالسّؤال على من أتفرّس فيه الحكمة والصّبر على فتًى ملحاح مثلي، فأستخبره عن البلاد التي جاء منها أو التي يقصدها، وعن العلوم التي تدرّس فيها،

١ـ لا نعرف شيوخ أبي عمران بمدينة فاس، على أن فاس عرفت خلال هذه الفترة مجموعةً من الأعلام، كفقيه وقته بفاس موسى بن يحيى الصديني (المتوفى عام ٣٨٨هـ). انظر: تاريخ علماء الأندلس ص ٨٥٥؛ ترتيب المدارك ج ٦ ص ٢٧٩. والفقيه القاضي أبي محمد عبد الله بن محسود الهواري (المتوفى عام ٤٠١هـ). انظر: المستفاد ج ٢ ص ١٩١؛ التشوف ص ١١٦، وغيرهما.

٢ـ جبر الله بن القاسم الفاسي الأندلسي، الفقيه الصالح الورع، من مشاهير علماء فاس وفقهائها المتقدمين، له رحلة إلى المشرق سمع فيها عن الإمام أصبغ بن الفرج المصري، وهو ممن أدخل علم مالك إلى فاس، توفي عام ٣٥٠هـ. راجع: ترتيب المدارك ج ٦ ص ٨٥؛ جني زهرة الآس ص ٩٥؛ جذوة الاقتباس ص ١٧٤.

٣ـ الحافظ أبو موسى عيسى بن سعادة الفاسي من مشاهير فقهاء فاس والمغرب، أخذ العلم بفاس، وسمع بها عن جبر الله الفاسي، ثم كانت له رحلة علمية زار فيها القيروان ومصر والأندلس، وصحب طائفة من الأعلام كالقابسي والأصيلي، توفي بمصر عام ٣٥٥هـ. انظر: ترتيب المدارك ج ٦ ص ٢٧٧؛ جذوة الاقتباس ص ٤٩٩.

٤ـ الإمام الحافظ المحدث دراس بن إسماعيل، أبو ميمونة، أحد أعلام المغرب الكبار، أخذ عن شيوخ بلده، ثم رحل إلى المشرق حيث أخذ كتاب الموازية (من أمهات الفقه المالكي)، وحدّث به في القيروان، ثم زار سبتة والأندلس، وحدّث فيهما، كما كانت له مشاركة في الجهاد بالأندلس. تتلمذ على يديه أعلام كبار كأبي زيد القيرواني صاحب الرسالة وأبي الحسن القابسي، وأحمد بن العجوز الكتامي مفتي المغرب في زمانه، وعبد الرحمن بن خلف التجيبي الإقليشي وغيرهم. ثم استقر بفاس وهو أول من أدخل إليها مدونة الفقه المالكي، فصارت إليه الرحلة بالمغرب في وقته وعليه مدار الفتيا. توفي بفاس عام ٣٥٧هـ على قول ابن الفرضي. انظر: تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٦٤؛ ترتيب المدارك ج ٦ ص ٨١؛ المستفاد ج ٢ ص ١٨٠؛ شجرة النور الزكية ج ١ ص ١٥٣.

٥ـ عرفت فاس –والمغرب تبعًا لها– المذهب المالكي منذ زمن تأسيسها، إلا أنه يمكن اعتبار هذا الجيل من علماء القرن الرابع الهجري هو الجيل المؤسس للمدرسة الفقهية المالكية بالمغرب، والتي تفردت عن المدرستين المالكيتين بإفريقية والأندلس.

وعـن المجالـس التي تُعقد فيها، وعن الشّـيوخ النّابغين بها، فأغبطهـم[1] على ما حصّلوه من مشاهدات وحازوه من خبرات وعلوم ومعارف، وعلى هذه الحال بقيت سنوات.

على أنّ فاس بعدها ضاقت بي، لا لكراهة ألقاها الله في قلبي تجاهها، فهي الأمّ، والمرء لا يكـره أمّه التي تكوّن في رحمها ونشـأ في حضنها ورضـع من ثدييها، وإنّما لتوق أصاب نفـسي للرّحلـة في أرض الله، لعـلّي أصيب من ورائهـا حكمةً ضالّـةً، أو علمًا خصوصيًّا، أو سرًّا خفيًّـا لم تنعـم به فاس عـليّ. فأطلعت والدي على ما يجـول في خاطري وتهفو إليه نفسي، واسـتأذنته في أن يسـمح لي بالخروج. وبعد أن تأكّد أنّه لا نيّة لي في دنيا أصيبها أو امـرأة أنكحها، وتيقّن أنّ مـا كرعته من علوم بفاس لم يزدني إلّا ظمأً فيما لم أجده بها، أذن لي عندها بالخروج، وأوصاني بتقوى الله، وإخلاص النّيّة، وإدانة النّفس ومحاسبتها، ودعا لي بالتّوفيق والسّداد وصلاح البال، ثمّ جهزني أحسن جهاز بما يلزمني في رحلتي، فرضي الله عنه، وجزاه عنّي خير الجزاء.

لكلّ شيء ميقات وأجل معلوم، وقد لبثت في فاس -بعد أخذي الإذن- مدّةً استثمرتها في تجهيـز نفسي والتّخطيط لرحلتي وتوديع الأحبـاب والأصحاب ومرابع الصّبا، وتملّي دروب المدينة، وتنشّـق عبقها الآسر للحواس، والاعتناء بمطيّتي التي سـأعتمد بعد الله على جَلَدها وصبرها في تبليغي بُغيتي ريثما تتهيّأ لي صحبة أخرج في ركابها، وما إن هيّأها الله حتـى توكّلـت واعتمدت عليه، وطلبـت عونه، وتلوت ما أحفظه مـن أوراد وأدعية يتلوهـا المسـافر، وغادرت فاس[2] مع طائفـة من الطّلبة المغاربة قاصديـن قاعدة إفريقيّة وأم مدنها، القيروان، منارة العلم ومهبط العلماء والفقهاء والحفّاظ.

***

١ـ (... والغِبْطَةُ أَن تَتَمَنَّى مِثْلَ حَالِ المَغْبوطِ مِنْ غَيْرِ أَن تُريد زَوَالَهَا وَلَا أَن تَتَحَوَّلَ عَنْهُ وَلَيْسَ بِحَسَدٍ) لسان العرب ج ٧ ص ٣٥٩.

٢ـ لا نعلم تاريخ بداية رحلة أبي عمران، والغالب أنها كانت في بداية شبابه، أي وعمره قريب من العشرين.

رافقني في الرّحلة جمّ غفير من طلبة العلم، من سائر أمصار المغرب وبواديه، وآخرون خرجوا معنا بنيّات أخرى غير طلب العلم. فمنهم السّائح في أرض الله، ومنهم الرّاغب في دنيا يصيبها، ومنهم السّاعي وراء طيف غيداء أرّقت ليله، ومنهم الباحث عن نفسه، ومنهم من ضاقت عليه الأرض بما رحُبت، ومنهم الهارب من مُطارِد أعياه، ومنهم من خرج معنا وهو جاهل لسبب خروجه، فسبحان الله مقلّب القلوب وإن جمع بينها طريق واحد. وهؤلاء لم تكن القيروان بالنسبة لهم إلّا محطةً في رحلة طويلة يخوضونها بحثًا عن رغائبهم، غير أنّ اختلاف نيّاتنا ومقاصدنا بين هارب وراغب وطالب، لم يمنع الألفة من توحيدنا، فرفيق السّفر كرفيق الحرب المأمون على النّفس والمال، وفي السّفر توزن أخلاق الأصحاب، وتُعرف معادن البشر، وتُكتسب التّجارب، وتُسمع العجائب، وكم من أسقام طردها سفر عن النّفوس، وأحزان أجلاها عن القلوب!

لم أنفكّ طوال الرّحلة وأنا فوق راحلتي أو ماشٍ على قدميّ، أستأنس بذكر الله والتّغني بالقرآن الكريم، أو أتأمل بدع صنع الله وجميل خلقه. وفي أوقات الرّاحة أجتمع إلى رفقاء الطّريق، فأحكي لهم عن فاس، ويحدّثونني عن مدنهم وقبائلهم، وهذا من أعظم ما أحصيه من فوائد السّفر، فلولا ما سمعته منهم من أخبار، لم أكن لأعي مدى التّصدع الذي أصاب مغربنا وشقّ صفّه، نتيجةً لما أحدثه التّنافس بين القبائل في النّفوس من شقاق وفي الأرض من خراب. وللمرّة الأولى سيتسنّى لي التّعرف -وإن بالسّماع- عمّا أحدثته برغواطة من بدع، وما أقامه بعض المرابطين[1] حولها من رباطات[2] كأنّها أَكَلَة

١ـ (والرِّباطُ والمُرابَطَةُ: مُلازمةُ ثَغْرِ العَدُوِّ، وأَصله أَن يَرْبِطَ كلُّ وَاحِدٍ مِنَ الفَرِيقين خيلَه، ثُمَّ صَارَ لزومُ الثَّغْرِ رِباطًا). لسان العرب ج ٧ ص ٣٠٢.

٢ـ من تلك الرباطات التي أحيطت بها برغواطة: رباط شاكر، رباط نفيس، رباط كوز... وقد ذكر ابن حوقل الذي زار البلاد عام ٣٤٠هـ أنه كان بسلا -وهي من مدن برغواطة- رباطات تحف بها يبلغ عدد من بها من مرابطين مائة ألف يزيدون في وقت وينقصون في آخر. راجع: ابن حوقل ج ١ ص ٨١.

يحاولون عزلها حتى لا تعدي جسد البلاد المتهالك أصلًا. وللمرّة الأولى أيضًا سأعرف أنّ الزّناتيّين من مغراوة وبني يفرن لم يتسلّطوا على فاس وما إليها فقط، بل على كثير من حواضر البلاد ومداشره، فمنهم من غلب على سجلماسة وشالّا وتادلا وأغمات، وهم في البوادي أكثر وأعمّ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

فهؤلاء البدو -كما بحت للرفقاء ذات أمسية- المتجرّدون من أيّ وعي بروح الرّسالة العظمى، رسالة ربّ العالمين التي حمّلها الرّسلَ والأنبياء والعلماء والمجاهدين والمصلحين والمجدّدين والقادة العظام، يسوسون البلاد دونما اتّساق مع طبيعتها وكينونتها، بل حتّى دونما أدنى مستوى أخلاقيّ يجعل من الحكم وسيلةً لإنعاش البلاد والعباد، لا غايةً للاستئثار بمقدَّراتها ورقاب أهلها.

أمّا ما أحدثه جشعهم للسّلطة والتّملّك، وتهافتهم على الرّياسة بأيّ وجه كان من خراب في البلاد وتمزيق لأوصالها، فشيء عميق الأثر جمّ الضّرر، حتى لو عنى ذلك الخضوع والتّبعيّة للأجنبيّ، وكأنّ نار الفاطميّين والأمويّين التي اصطلم بها مغربنا وما بثّوه فيه من فرقة وفتن وانقسام لا تكفي.

وما زالت بعض صور فسادهم في فاس وأحوازها عالقةً بذهني منذ كنت صغيرًا، ففي أعوام القحط والمَساغِب الكبرى، والبلاد تعرف أقسى المجاعات والأوبئة، كان مغراوة يهجمون على فاس، فيسلبون وينهبون ويخرّبون، فكان سفهاؤهم وعبيدهم يصعدون إلى قنّة جبل العرض، فينظرون إلى الدّور التي بالمدينة، فإذا رأوا دارا بها دخان، قصدوها، وأخذوا ما وجدوا بها من طعام أو غيره، حتى اتّخذ أهل فاس المطامير في بيوتهم للطّحن والطّبخ لِئَلّا يُسمع دويّ الرّحى، فتقصدهم سفهاء مغراوة، واتّخذ النّاس بفاس أيضًا غرفًا لَا مراقي لها، حتّى إذا كان عشيّ النّهار صعد الرّجل بأهله وعياله إليها

بسلّم، ثمّ يرفع السّلم معه لِئَلّا يُدخل عليه فَجْأَةً[1].

وبالجملة فإنّ أهل فاس قد عانوا الأمرّين من هؤلاء المفسدين، وفي عام سبعة وسبعين وثلاثمائة للهجرة مكّن الله زيري بن عطيّة من فاس، فدخلها، وأظهر بها الدّعوة الأمويّة، وهو العام نفسه الذي عمّ فيه الجراد الكثير بلاد المغرب وفتك بها[2]، فكأنّ الله قدّر لفاس أن تصيبها مصيبتان، الجراد وزناتة.

وليت الأمر توقّف عند هذا الحدّ، بل إنّ فاس تحوّلت لساحة صراع بين زيري بن عطيّة المغراوي وعدو له من جنسه وقبيله، هو يدّو بن يعلى اليفرنيّ، فكان إذا غلب أحدهما الآخر دخل فاس وملكها حتّى يخرجه عنها الآخر[3]، كأنهّا جارية يتنازعونها أو سبي يتسابقون عليه، إلى أن حسم زيري صراعه مع يدّو بعد مدّة، وجزّ رأسه، وبعث به إلى صاحب رسنه في قرطبة، ولا حول ولا قوّة إلا بالله. ورؤساء مغراوة هؤلاء جميعًا يرجعون في نسبهم لرجل واحد، هو محمد بن خزر المغراويّ، وبئست الذّريّة تلك.

كانت تلك الأحاديث والمسامرات مع رفقاء السّفر على عِظم فائدتها، تحملني على التّفكّر في حال بلادنا ووسائل صلاحه وقد طال تمزّقه وتعدّدت أيدي العابثين في مصيره، لدرجة كاد يصرفني ذلك عن هدفي السّاعي إليه، فاللّهم ثبّتني وأعِدَّني واستعملني فيما فيه صلاح بلادي وأمّتي.

***

١ــ روض القرطاس ص ١١٤، ونقل عنه صاحب "الاستقصا" ج ١ ص ٢٨١.
٢ــ روض القرطاس ص ١٠٢.
٣ــ روض القرطاس ص ١٠٤.

بعد قرابة الأربعين يومًا انتهت رحلتنا بوصولنا القيروان[1]، رأيت خلالها مدنًا وقرًى وقلاعًا، ونزلت بسهول وأودية، واخترقت فجاجًا لا يحصي من سكنها وعمّرها من أمم إلّا الله سبحانه، فألفيتها مدينةً عظيمةً، آهلةً معمورةً، متعدّدة الأجناس، كثيرة الأرزاق، تعجّ بالأسواق، وتختلف إليها القوافل من كلّ جهة بصورة تغري بالتّجارة والخوض في دروب طلب الدّنيا، إلّا أنّ مَن جُبِل على تجارة المجالس وتعلّق قلبه باللّوح والدّواة لن يغرّه ربح وإن كان متيسّرًا، فلم أجد -والتّوفيق من الله- في قلبي تعلّقًا بصارف يصرفني عن رغيبتي، فأسرعت أبحث عن مكان أنزل به وأحفظ فيه متاعي، وما إن وجدته وتأكّدت من مناسبته لي حتّى خرجت أطلب بُغيتي بغير إبطاء.

فأتيت قلب كلّ مدينة عامرة، جامعها الأكبر أستدلّ على العلّامة الحافظ أبي الحسن القابسيّ[2]، ولم أكن أحتاج إلى السّؤال عنه حتّى أعرفه، فللرّجل من العلامات ما لا يخفى عن ذوي الأحلام والتّمييز، فأتيت مجلسه، وثنيت ركبتيّ بين يديه منتظرًا انفضاض الطّلبة والمتحلّقين عليه، ثمّ أتيته، فسلّمت عليه، وانتسبت معرّفًا بنفسي وبلدي.

وكان الحافظ يعزّ الطّلبة الفاسيّين وينزلهم المنزلة الأثيرة عنده، لما يلمسه فيهم من جدّ ونباهة في التّحصيل، ثمّ انطلق يستخبرني عن أحوال فاس، ويستفسر أخبار جملة من أفاضل علمائها، فأجبته بما عرفت، ثمّ خصّني ببعض أخباره مع شيخه أبي ميمونة درّاس بن إسماعيل، وأثنى عليه غاية الثّناء، فانشرح قلبي له، وأنست به، وأظنّه انشرح لي كمثل انشراحي له، وآنس منّي ما أنسته منه، فلم ألبث أن أخبرته متحمّسًا بما جئت من

١ــ انظر أهم محطات الرحلة من فاس إلى القيروان عند: البكري ج ٢ ص ٣٢٥؛ ابن حوقل ج ١ ص ٨٤.
٢ــ علي بن محمد بن خلف المعافري القروي، الحافظ المحدث، إمام المالكية في القيروان في وقته. توفي عام ٤٠٣هـ.

أجله إلى القيروان، وما خلّفت في سبيل نيله مقامي وأهلي وعشيرتي، فقبلني، ودعا الله لي بالتّوفيق، وكان مستجاب الدّعوة مهيبًا في أعين الحكّام[1]، وحضّني على الأخذ بقوّة، فكان بذلك أوّل شيوخي بعد من أخذت عنهم بفاس، وأعظم من تتلمذت عليهم منزلةً في قلبي على الإطلاق.

بقيت بالقيروان مدّةً طويلةً ملازمًا مجلس شيخي القابسيّ، لا أجلس إلى غيره، ولا أسمع من سواه، حتّى أخذت من فقهه ما شاء الله لي أن آخذ، وكان رأس المالكيّة في القيروان لا يضاهيه فيها أحد، كما سمعت عنه الحديث، وكان حافظًا له بصيرًا بعلله ورجاله، وهو أوّل من أدخل رواية صحيح البخاري إلى إفريقيّة، على أنّ كلّ هذه المشافهات والمسموعات والمنقولات التي استوعبها عقلي، بقيت قاصرةً أمام أعظم ما استوعبه قلبي من ملازمته، وأقصد هنا مقام الفضل والورع والزّهد الصّادق المتجلّي في كلّ أحواله وأفعاله وأقواله، وأيّ شيخ أعظم ممّن تأخذ عنه علمًا وسَمتًا.

وكان ﷺ يعزّني، ويظهر لي المبرّة والمودّة، ويضربني مثلًا في الحفظ والفهم، ويقدّمني للمناظرة والجواب، ويعدُّني من جملة العلماء[2] وأنا ما زالت بعدُ طُوَيْلِب علم، فكان هذا وغيره مما زاد تعلّقي به وإجلالي له. ولا أبالغ إن قلت إنّ علاقة وجدانيّة تفوق علاقة التّلميذ بشيخه قد جمعت بيني وبينه، من مظاهرها أنّه كان يفقدني إذا غبت عن مجلسه رغم ما امتحنه الله به من كفّ البصر، وأنّي كنت أستحضره في كلّ شؤوني حتّى بعد انتقالي عنه.

إضافةً إلى شيخي القابسيّ كان بالقيروان علماء أجلّاء حضرت مجالسهم وسمعت منهم، كأبي بكر الزّويليّ[3]، وفقيه بلده في وقته عليّ بن أحمد اللّواتي السّوسّي[4] وغيرهما.

١ــ انظر: ترتيب المدارك ج ٧ ص ٩٧.
٢ــ ما يدل على طول ملازمة أبي عمران للقابسي. انظر: ترتيب المدارك ج ٧ ص ٩٧.
٣ــ أبو بكر أحمد بن أبي بكر الزويلي، من العلماء العباد الزهاد المتبتلين، توفي عام ٣٩٥هـ.
٤ــ لم أقف على عام وفاته. راجع: ترتيب المدارك ج ٧ ص ١٠٢.

غير أنّ العلم كان وما زال أوسع وأعظم من أن تحتويه مدينة، حتّى لو كانت هذه المدينة هي القيروان، فكان الانتقال في طلبه فريضةً عليّ، فعزمت أمري على الانتقال منها إلى غيرها.

اكتشفت -بعد رحلتي الأولى- أنّ كلّ رحلة يقوم بها الإنسان تفسح في صدره حيّزًا مساويًا لها، لا تملؤها إلّا رحلة أخرى، فجمعت رحلي، وودّعت صحبي، واستعددت للسفر نحو منارة العلم وبلاد العلماء، الأندلس، مخلّفًا ورائي مدينةً لم أرَ فيها إلّا السّهولة في المقام، وقومًا لم يصلني منهم إلّا طيب المَعشر، ولكنّها مسالك الطّلب ومراقي التّحصيل، لا يخوضها إلّا مجتهد، ولا ينال رحيقها إلّا مُصابر مجاهد حمل النّفس على ضدّ ما جُبلت عليه من ارتخاء وركون إلى الرّاحة والسّكون.

وبعد أن أخذت إذن شيخي القابسيّ، ومتّعني بصالح دعائه ورضاه، توكّلت على الله وحزمت كتبي ومخطوطاتي، وغادرت القيروان قاصدًا مدينة تونس، وهي أقرب مرسى يعبر منه أهل إفريقيّة إلى الأندلس[1].

***

١ _ الإصطخري ص ٣٨.

بعد رحلة هوّنها الله عليّ، كان نزولي بمرسى ألمريّة، مستقرّ أسطول الأندلس وبابها الشرقيّ ومفتاح ما يأتيها من جهة الشّرق من تجارة وأرزاق[1] ومسافرين، وبها بقيت مدّةً حتّى أستأنس البلاد والعباد، وأرتاح من مشقّة السّفر وما يصيب المزاج من ركوب البحر أوّل مرّة من تكدّر، فتسنّى لي خلال مكوثي بها لقاء طائفة من الكرماء وإجازة بعضهم[2]. ثمّ بعد انجلاء ما أصاب مزاجي من كدر وتلبّد ارتحلت قاصدًا قرطبة، فوصلتها ولا أعرف بها أحدًا، ورغم أنّي لم أحسّ بغربة فيها، فإنّ الحنين عاودني وشدّ قلبي إلى وطني فاس وداري القيروان، فحاولت مدافعته بخاطرة طالما ردّدتها: (طالب العلم كالنّحلة، حيثما تفتّحت زهرة حطّ بها).

وقرطبة زهرة، زهرة الأندلس، بل زهرة الغرب كلّه، لا في العلم فقط، بل في كلّ شيء. فهي منتهى الغاية، ومركز الرّاية، وأمّ القرى، وقرارة أهل الفضل والتّقى، ووطن أولي العلم والنّهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجّر العلوم، وقبّة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر دُرر القرائح[3]، إليها تشدّ الرّحال، وفي سبيلها تُخاض البحار.

ألفيت قرطبة عند حلولي بساحتها أوسع رقعةً من فاس، وأرحب أرجاءً من القيروان، وأعظم منهما عمارةً ومدنيّةً وخططًا. كثيرة الأهل، فخمة المباني، عديدة الأرباض[4]

١ـ انظر: قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، ماي ١٩٥٥، ص ٢٨٣.

٢ـ يذكر ابن عبد الملك أخذ سليمان بن يحيى المعافريّ السرقسطيّ (ت بعد ٥٤٠هـ) عن أبي عمران بألمرية، غير أن هذا لا يستقيم نظرًا لعام وفاة سليمان. انظر: الذيل والتكملة ج ٢ ص ٩٣.

٣ـ راجع: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج ١ ص ٣٣.

٤ـ كان بها على أيام بني أمية ٢٨ ربضًا كما ينقل ابن عذاري، ونقل المقري عن ابن بشكوال أن عدة أرباضها ٢١ ربضًا، فيم نجد عند ابن غالب أنها ٢٠ ربضًا. انظر وقارن: البيان ج ٢ ص ٢٣٢؛ نفح الطيب ج ١

والمساجد[1]، محكمة التّنظيم والتّشييد، فائقة الصنائع، كثيرة الأموال، واسعة الأحوال، محروسة بسور كبير.

غير أنّ أكثر ما أثارني في قرطبة تنوّع ساكنيها واندماجهم فيما بينهم على اختلاف ملامحهم وأديانهم ودرجاتهم وأصولهم ولكناتهم، ففي قرطبة أقوام من أصول شتّى، أمازيغ وعربًا وصقالبةً[2] ومولّدين وسودانًا وأهل ذمّة يهودًا ونصارى، غير أنّ جلّهم اليوم يسمى أندلسيًّا، حتّى لو عرف الفرع منهم أصله، لتلاقح الأعراق وتمازجها. فلا من يدّعي نسبًا أو يحمل لقبًا عربيًّا هو عربيّ[3] السّحنة واللّغة والطّبائع، ولا من ينتسب للأمازيغ[4] هو كأمازيغ أهل المغرب وإفريقيّة، ولا النّصرانّي نصرانّي كبني جنسه وديانته

ص ٤٦٥؛ قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٩٥.

١_ كان بها زمن بني أمية ٣٠٠٠ مسجد، فيم أحصي بها في القرن الخامس (عام ٤٦٠هـ) ٤٩١ مسجد. انظر: البيان ج ٢ ص ٢٣٢؛ البكري ج ٢ ص ٣٨٩.

٢_ ويسمون أيضًا بالموالي، وهم العبيد البيض القادمون أساسًا من أوروبا الشرقية، وقد أحصي بقرطبة منهم منتصف القرن الرابع ٣٧٥٠ صقلبي، كانوا في أغلبهم خصيانًا، وقد استعملوا في عصر الخلافة كخدم وحرس في البيوت وقصور الأمراء والسلاطين وكجنود وحرفيين، كما استطاع بعضهم نيل حريته، فيما وصل بعضهم لمراكز صنع القرار، وحاولوا تنصيب أحد أبناء الناصر بعد موت المستنصر بالله، قبل أن يقطع المنصور بن أبي عامر عليهم الطريق وينظف الساحة لنفسه بالقضاء على طموحاتهم السياسية، ثم بعد سقوط الخلافة أصبحوا أكثر استقلالاً وتضامنًا فيما بينهم، ولعبوا إلى جانب العناصر الأخرى دورًا في مجريات الأمور زمن ملوك الطوائف.

٣_ قدم ابن حزم في جمهرته معلومات مستفيضة عن منازلهم وأماكن استيطان من حرصوا على الاحتفاظ بأصولهم القبلية العربية، لكن دون أن تكون لهم عصبية. وبمراجعة ما قدمه يتبين أن العرب كانوا يشكلون أقلية في قرطبة يومئذ بل بالأندلس ككل.

٤_ أفرد لهم ابن حزم فصلًا في جمهرته أسماه بيوتات البربر في الأندلس، كما أورد ابن خلدون رصيدًا مهمًّا عنهم في عِبَره. والمعنى ينصرف هنا لأمازيغ الفتح ومن جاز في أثرهم ومن استعان بهم عبد الرحمن الداخل لِلسيطرة على الأندلس، لا إلى الأمازيغ الذين استقدمتهم الخلافة ثم الحجابة بعدها كمجنّدين أساسًا للغزو ولمكاثرة العرب وقمعهم، فهؤلاء كان لهم وضع مختلف في النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس، حيث تم النظر إليهم من طرف الأندلسيين كمسبب أساسي ووحيد "للفتنة" التي عصفت بالأندلس وأنهت خلافتها. وقد تناولنا هاته الصورة التي رسمت لهم في كتابنا شيخ الثور {ميسرة المضغري}، فراجعه.

في أرض الشّرك، ولا حتّى اليهود هم كيهود المغرب[1].

ومرجع امتزاج هؤلاء الأقوام فيما ظهر لي -بعد تفكّر ومعاشرة- سببان أساسيّان، أوّلهما: غنى بلاد الأندلس ورفاهيّتها، وخصب تربتها، وكثرة خيراتها وأقواتها وصنائعها، واكتفاؤها بذاتها، وتيسّر المعيشة بها، ما جعل الصّراع بين هاته الأقوام في حالة حدوثه إنّما يكون على السّؤدد والرّياسة والجاه، لا على موارد الرّزق وسبل العيش والبقاء كما يحدث في البلاد المبتلاة بتوالي المجاعات والقحوط. وثانيهما: قرب بلادهم من أرض العدو، وانقطاعها عن باقي بلاد المسلمين، ما خلق لدى أهلها إحساسًا بفرادة موقفهم ووحدة مصيرهم، وخلق بينهم رابطًا نفسيًّا لا يزعزعه إلّا الصّراع على السّؤدد والرّياسة كما قلت.

ولا أهمل بقيّة الأسباب الطبيعيّة المُتَعَقَّلَة، كاحتكامهم جميعًا لدين الإسلام وشريعته المؤلّفة للقلوب، وكهواء بلادهم[2] المعتدل البعيد عن التّوحّش وإفساد الأمزجة وانحراف الأخلاق والإنسانيّة. بل على العكس، نجد هواء الأندلس حاملًا على لطافة الطّبع، ورقّة الشّعور، ورهافة النّفس وتفتّق الذّهن، فكثر فيهم العلماء والشّعراء والصّناع المهرة، وهذا وغيره ما منح أهل الأندلس -وقرطبة خاصّةً- شخصيّةً مشتركةً تميّزهم عن بقيّة المسلمين في الغرب والشّرق، والله أعلم.

١ـ يسمى يهود الأندلس بالسفارديم، وقد كانت لهم بالأندلس لغة خاصة بهم تسمى اللادينو، حملوها معهم إلى المغرب بعد هجرتهم إليه مع من هاجر من المسلمين، وعنها تطورت لغة جديدة تسمى الحاكيتية ميزتهم عن غيرهم من الناطقين باللادينو في بلدان المهجر الأخرى. أما اليهود المغاربة الأصليون -وهم أكثر يهود المغرب- فيسمون بالتوشافيم، وهؤلاء يتحدثون إما الأمازيغية أو الدارجات المغربية التي تميز كل مدينة ومنطقة عن غيرها.

٢ـ نصادف في مجموعة من المصنفات التاريخية والجغرافية ملاحظات عن تأثير الطبيعة على الأخلاق، لكن يبقى ابن خلدون أكثر من اهتم بالموضوع، حيث أفرد له المقدمتين: الثالثة: "في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير في أحوالهم"، والرابعة: "في أثر الهواء في أخلاق البشر" من فصل "العمران البشري". المقدمة ج ١ ص ١٨٩ وما يليها.

وعامّـة أهل قرطبة أشـبه أهل الإسـلام بالعجم مـن قوط وقطلونيّـين[١] وجلالقة[٢] وبشكنس[٣] وإفرنسيّين[٤] وغيرهم، لكون أغلب الفاتحين ومن جاء في أثرهم من أمازيغ العدوة وجند الشّـام تزاوجوا بنسـاء البلد المفتوح، فاتخذوا ممّن أسلمن منهن[٥] زوجات ومولّدات، وممّن لم يسلم منهن جواري وسراري، فجاءت الشّقرة وبياض البشرة وتلوّن العينين غالبةً على أبنائهم، حتى صارت الشّـقراء مستحسـنةً عندهم من سـوداء الشّعر، وهذا حال عامّة النّاس كما الأمراء.

وقـد وصلني أنّ خلفاء بني أميّة ولا سـيما ولـد النّاصر[٦] كانـوا مجبولين على تفضيل البنـت الشّـقراء، لا يختلـف في ذلك منهم مختلف، فجـاؤوا وما منهم إلّا أشـقر، نزاعين إلى أمّهاتهـم، حتّـى قد صار ذلك فيهـم خلقةً[٧]. وأغلب أهل قرطبـة يرطن -إلى جانب الدّارجة الأندلسـيّة التي هي أقرب ما تكون لدارجـة عدوة الأندلس بفاس من غيرها- بدارجة أعجميّة تسمى باللّطينيّة، وهي مخالفة للّطينيّة المعروفة بالعدوة[٨]، ويندر أن تجد

١ـ الكطالونيون، مجموعة إثنية ذات نزعة استقلالية، تستوطن إقليم كطالونيا شمال شرق إسبانيا، يتحدثون لغةً خاصةً بهم هي الكطالونية.

٢ـ الغالسـيون مجموعـة إثنيـة أوروبيـة، يسـتوطنون إقليـم (غاليسـيا – Galicia) شـمال غرب إسـبانيا، ويتحدثون لغةً خاصةً بهم هي الغاليسية.

٣ـ الباسـكيون مجموعة إثنية ذات نزعة اسـتقلالية تتوزع بين شـمال إسـبانيا وجنوب فرنسا، يستوطنون الإقليم المعروف باسـمهم (إقليم الباسـك -País Vasco) غرب جبال البرنييه، ويتحدثون لغةً خاصةً بهم تسمى بالباسكية.

٤ـ وكان يطلق عليهم أيضًا الفرنجة والإفرنجة.

٥ـ وقد سُمِينَ بالمُسالمة، وأطلق على أولادهن "المولدون".

٦ـ أبـو المطـرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، الناصر لدين الله، الأمير الأموي الثامن، تولى الإمارة بعد جده عام ٣٠٠هـ، وتسـمى بالخلافة عام ٣١٦هـ، وتوفي عام ٣٥٠هـ. تميز بهمته العالية في الغزو وتشجيعه للعمارة وحبه بالأدب.

٧ـ طوق الحمامة ص ١٣٠.

٨ـ راجع: نزهة المشتاق ج ١ ص ١٧٨.

بقرطبة والأندلس من لا يتكلّم بها[1].

هكذا كانت قرطبة، وهكذا رأيتها، لكنّي بقيت متأكّدًا من أنّها تخفي من الأسرار أكثر ممّا تبدي، وأحد أسرار العلم السّاطعة بها كان الإمام أبا محمّد الأصيليّ[2]، رئيس علماء الأندلس[3]، ومن طابقت شهرته الآفاق. وقد كان حدّثني شيخي القابسّي عنه وأنا في القيروان، عن علمه وفضله وحسن صحبته له خلال رحلتهما معًا في طلب العلم، وعندما عقدت العزم على الدّخول إلى الأندلس، جعلت من الورود عليه غايتي وهدفي، ولم يكن من العسير الاستدلال عليه في مدينة يحتلّ صدارتها العلماء وأهل القلم، فلمّا أتيته -وكانت سكناه بربض الرّصافة بجوفيّ قرطبة[4]- عرّفت بنفسي وبلدي ورحلتي إلى القيروان، ومن أخذت عنهم من شيوخ بالمغرب والقيروان صلةً لرحم العلم وتبيانًا لحظّي منه، ثمّ سألني عن أبي الحسن القابسيّ وغيره، وعن أحوال المغرب وما صارت إليه تصاريفه، فأجبته بما عرفت، وسكتّ عمّا احتجب عنّي علمه، فأدناني منه، وأحسن إليّ، وحدّثني عن رحلته الطّويلة ومن لقي بها من شيوخ.

وقد وجدته أثناء أخذي عنه عظيم العلم والفهم، ثبت النّقل، صحيح الضّبط، رفيع

١ـ وهي الدارجة اللاتينية التي كانت من الشيوع بالأندلس يومئذ حتى ليُتعجّب ممن لا يجيدها، وهذا ابن حزم -وهو من رجال القرن الخامس- يجد في عدم تمكن قوم من اللاتينية أمرًا نادرًا أو مستغربًا يستحق التوثيق، فنجده يسجّل: (ودار بلي بالأندلس: الموضع المعروف باسمهم بشماليّ قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم؛ لا يحسنون الكلام باللطينية، لكن بالعربية فقط، نساؤهم ورجالهم...) جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣. وقد ألمعنا في كتابنا نبي برغواطة {صالح بن طريف} إلى جانب من هذا المبحث عند حديثنا عن لغة برغواطة، فراجعه.

٢ـ أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي، من أعلام المغرب الكبار، ينسب إلى مدينة أصيلة (أَزَيْلَا) بالشمال المغربي حيث نشأ وتعلم، قبل أن يقوم برحلة علمية طويلة قادته إلى الأندلس وإفريقية ومصر ومكة والعراق، رجع بعدها إلى المغرب ليجد نفسه مضطرًا لمغادرته ثانيةً بفعل ما كان يعرفه من فتن وحروب واستقرار بالأندلس، حيث تقلد الشورى والقضاء، وانتهت إليه رئاسة المذهب المالكي بها، توفي عام ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م. ونجد في مسيرة الأصيلي العلمية والحياتية نقاط تشابه كثيرةً مع مسيرة تلميذه أبي عمران.

٣ـ شجرة النور الزكية ج ١ ص ١٥٠.

٤ـ الصلة ج ٢ ص ٤٠٠.

الحال، عدل القول، فردًا لا مثيل له[1]، متفنّن الرّأي، بحرًا في علم الحديث ومعانيه وعلله ورجالـه[2]، طـودًا في الفقه من حفّاظـه الكبار، عارفًا بآراء الأئمّـة واختلاف أقوالهم[3]، تـاركًا التّقليد، معتمـدًا على الأصول، مجتهدًا مجدّدًا لمذهب مالـك بالأندلس، أمّا في علم الـكلام والنّظر، فوجدته حائزًا المنزلـة العالية على مذهب العراقيّين[4]، فحمدت الله على وجود أمثاله في أمّتنا، وتأسّـفت أنّ مثله يخرج من المغرب ولا يطيب له به مقام بسـبب ما اعتور بلدنا من فتن وخطوب.

وقـد وفّقنـي الله تعـالى طيلة مـدّة ملازمتي لـه، فأخذت عنه علـمًا جمًّا مـن الفقه، كما أخذت عنه روايته للجامع الصّحيح بإسـنادها إلى الإمام البخاري، وهي أصحّ روايات صحيـح البخاري[5]. وقـد تهيّأ لي وأنا ملازم له معاينة عظيم انثيـال طلبة العلم عليه من كلّ جهة لسماع هاته الرّواية منه خاصّةً. وقد وفّقني الله فيما بعد، فحدّثت بما أخذت عنه من حديث[6] خلقًا كثيرًا من المغرب والأندلس وإفريقيّة والمشرق، فللّه الحمد والمنّة.

أذكـر ممّـا علـق بخاطري أثنـاء ملازمتـي لشـيخي الأصيـليّ أمـرًا، وهو كثـرة ذكره الأربعمائـة، ومـا يكون فيها من الفتـن، ويدعو الله -عزّ وجلّ- أن يقبضـه قبلها[7]. وقد كانت تلك كما قيل فيما بعد من كرامات الإمام الأصيليّ، ولا أحسبها كرامةً منه، وإن كان رجل كرامات، بل حسن تبصّر ونفاذ رؤية وعمق معرفة ووعيًا بواقع الأندلس وتمخّض

١_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ١٣٩.
٢_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ١٣٨.
٣_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ١٣٨.
٤_ بغية الملتمس ص ٤٤١.
٥_ انظر: روايات الجامع الصحيح ونسخه «دراسة نظرية تطبيقية» جمعة فتحي عبد الحليم، ج ١ ص ٣٧٩.
٦_ فهرس ابن عطية ص ٦٥.
٧_ الديباج المذهب ج ١ ص ٤٣٤.

مشاكلها وما يجرّه عمى الحكّام على البلاد والعباد من وبال، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله[1].

ومن مأثور ما كان الأصيليّ يردّده ويدعو به ربّه: «اللّهم إنّك قد وعدت بالجزاء عند كلّ مصيبة، ولا مصيبة عليّ أعظم من نفسي، فأحسن جزائي عنها يا أرحم الرّاحمين[2]».

قدّر لي أثناء وجودي بقرطبة التّعرف على طائفة من الفضلاء، كان منهم أبو عمر ابن عبد البرّ[3]، الذي صار صاحبي، لما رأيت فيه من دأب في طلب العلم وافتتان به، مع براعة وتفوّق نادرين، ولما رآه هو فيّ من خصال، ووقعت على كتابه «التّقصّي لما في الموطّأ من حديث النّبيّ»، فألفيته خيرًا من كتاب «الملخّص» لشيخي القابسيّ[4]. وهو جزاه الله خيرًا من دلّني على المحدّث الأديب، المعرب الفصيح، الدَّيِّنِ الورع الفاضل أبي عثمان سعيد بن نصر[5]، وعلى المحدّث عبد الوارث بن سفيان[6]، وعلى الشّيخ الصّالح أبي الفضل أحمد بن قاسم البزّاز[7] صاحب قاسم بن أصبغ، فوجدته زاهدًا في الدّنيا منقبضًا

١ـ كان الأصيلي مقربًا من ابن أبي عامر، مقدمًا عنده، من أبرز رجال العلم بدولته، فتأتى له بما عُرف عنه من نفاذ فقه ودراية بمنهج الحكم إدراك عمق المشاكل البنيوية التي كان يعاني منها النظام الحاكم خلال تلك المرحلة. وقد دخلت الأندلس كما توقع الأصيلي بمجرد موت الحاجب عبد الملك المظفر عام ٣٩٩هـ في دوامة من الفتن والحروب الداخلية، أفرزت في عام ٤٢٢هـ ما سمي بفترة ملوك الطوائف، وهو واقع أسوأ من سابقه، أدى لانقسام الأندلس إلى عدة طوائف متناحرة فيما بينها.

٢ـ ترتيب المدارك ج ٧ ص ١٤٤.

٣ـ يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، القاضي، حافظ المغرب وشيخ علماء الأندلس وكبير محدّثيها في وقته، ولد هو وأبو عمران في سنة واحدة، وأخذ العلم بالأندلس على طائفة من الكبار، وأخذ عنه طائفة من المشاهير، ترك تراثًا علميًّا غنيًّا، ولم تكن له رحلة خارج الأندلس. توفي بشاطبة عام ٤٦٤هـ.

٤ـ انظر: فهرس ابن عطية ص ٨٣؛ الغنية ص ٤٣. وكلا كتابي ابن عبد البر والقابسي محقق مطبوع.

٥ـ سعيد بن نصر بن أبي الفتح مولى عبد الرحمن الناصر، أديب محدث، سمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دحيم وابن الأحمر وغيرهم، ومن أشهر من سمع منه ابن عبد البر وأبو عمران، توفي أواخر عام ٣٩٥هـ.

٦ـ عبد الوارث بن سفيان بن جبرون بن سليمان القرطبي، الملقب بالحبيب، من أشهر تلاميذ قاسم بن أصبغ، وعنه أكثر مروياته، روى عنه الحديث جلة من العلماء كالأصيلي وابن عبد البر، توفي عام ٣٩٥هـ. راجع: الصلة ج ٢ ص ٥٥٨.

٧ـ أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التاهرتي البزاز، قدم إلى الأندلس صغيرًا، وروى

عـن النّـاس، وعلى المحدّث الثّقـة أبي زيد عبد الرّحمـن بن يحيى العطّـار[1]، وغيرهم من المشـايخ الأخيار، فصرت صاحبه عندهم، نجلس إليهم، ونسمع منهم معًا. وقد وفّقني الله، فحفظت عنهم كثيرًا، وحدّثت بما سمعت أكثر.

لا أذكـر طيلة مكوثي بالأندلس، بل منذ سـلكت طريق العلم، أنّي نمت ليلةً بطولها، ولا شغلت نهاري بغير الجمع والتّحصيل والتّدوين والقراءة والحفظ والتّفكّر فيما أتلقّاه، محـاولًا اسـتجلاء المسـتغلق منه، وتحقيق المتحيَّر فيـه. وإن نامت عيني سـاعةً، بقي عقلي نشـيطًا يقلّـب ويرتّـب ويقيس ما طـرأ عليه في يومـه، وكم من مرّة توضّحت لي مسـائل اسـتغلقت سـاعة الدّرس! وما ذلك إلّا من توفيق الله وحسن عنايته بي. فاللّهم انفعنا بما علّمتنا، وعلّمنا ما ينفعنا، واسلك بنا في سلك العاملين بما علموا.

بعد أن ارتويت من معين قرطبة وينابيع علمائها الأفاضل، اتّجهت إلى مدينة إشبيليّة[2] الواقعة على بعد تسعين ميلًا غربيّ قرطبة[3]، وهي مدينة جليلة موفية على ضفاف الوادي الكبـير، وهـو في غربيّهـا، احتـوت على فضائـل عديدة وخصائـص فريـدة ومنافع جمّة، فحظيـت فيهـا بلقاء طائفة من الفضلاء، وسـمعت منهم ما قـدّر الله لي من علم. غير أنّ المقـام لم يطـب لي بهـا، لكثرة ما لعبـت بي لواعج الشّـوق والحنين إلى بـلادي، وزاحمتني التّسـاؤلات الثقيلـة على فؤادي، فمـن يدري ما فعـل الله بمغربنا، وما أحدثـه العابثون بمصيره. وأهلي، أبي وأمّي وإخواني وعشـيرتي وشـيوخي وأصحابي، أطواهم الرّدى، أم انقطع أملهم في رؤيتي ثانية، أم أنّ الله سيجعل لنا اجتماعًا بعد طول التّنائي والبعد؟

بها عن قاسم بن أصبغ وغيره، توفي عام ٣٩٥هـ. راجع: الصلة ج ١ ص ١٤٠.

١_ عبـد الرحمـن بن يحيى بـن محمد بن عبد الله بن يحيـى العطار القرطبي، ثقة، سـمع من الصدفي وابن الأحمر وغيرهما، وسمع منه كثير، له رحلة للمشرق، توفي ٣٩٦هـ. راجع: الصلة ج ٢ ص ٤٦٣.

٢_ عيون الإمامة ونواظر السياسة ص ١٩٧.

٣_ قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٩٣.

القلب مخصوص بوحي يأتيه من حيث لا يحتسب، وقد وجدتني بعد الوحي ألملم حوائجي ومخطوطاتي، وأتخلّص من كلّ ما يثقل حمله ويبخس قدره، وأنا في غاية الاطمئنان والبهجة أنّي سأعود إلى قواعدي وأصولي، وأصل رحم الودّ بأهلي ووطني، وما هي إلّا أيّام حتى توجّهت من إشبيليّة إلى الجزيرة الخضراء، ومنها ركبت البحر إلى مدينة سبتة، وهي مدينة منيفة ودار علم وعلماء أجلّاء، فمكثت في سبتة ليلة وصولي إليها، ثمّ خرجت من غير إبطاء في ركاب متّجه إلى فاس، وبعد ستّة أيّام[1] -رأيت فيها انقطاع حبل الأمن وأحسست بوخامة ما جنته على البلاد سنين التّطاحن والحروب- وجدتني واقفًا أمام أبوابها[2].

ما تزال فاس كما هي، واسعة الرّقعة، طيّبة البقعة، رحيبة المثوى، معشوقة السّكنى، كأنّ محاسن الدّنيا كلّها قد جمعت فيها وحيزت لها. لم يتغيّر شكل فاس، ولم يطرأ على خططها كبير تحوّل عمّا تركتها عليه، باستثناء ما عرفته أرباضها من اتّساع ونواحيها من استيطان بدو مغراوة، أما جوهرها، فهو هو، الرّوح المتألّقة نفسها، والعبق الآسر، والصّوت الأليف، والحركة الدّؤوبة في دروبها الضّيّقة وداخل مصانعها.

ما إن دخلت فاس، وشربت من إحدى سقّاياتها، وتنسّمت عبيرها، حتّى انتعشت ذاكرتي، وتبادرت إلى ذهني خيالات الصّبا، وما إن وصلت حومتي ووقفت مواجهًا لباب دارنا منصتًا إلى الأصوات الصّادرة منها، حتّى استرجعت شريطًا من الصّور العتيقة، وحمدت الله أنّ الحياة ما تزال شابّةً بدار أهلي ومنهم بها بقيّة.

١ــ انظر: مراحل الطريق من سبتة إلى فاس عند البكري ج ٢ ص ٢٩٧.

٢ــ لا نعلم تاريخ عودته إلى فاس، غير أن المرجح أنه عاد من الأندلس إليها قبل عام ٣٩٥هـ، وهو التاريخ الذي توفي فيه أغلب شيوخه بالأندلس.

في الدّار اجتمعت بأهلي وعشيرتي وجيراني، فاطمأننت على الحيّ منهم، وترحّمت على من رمتهم المنايا بسهامها، ثمّ تسنّى لي في الأيّام التّالية التّعرّف على ما شهدته المدينة من أحداث وتطوّرات خلال فترة غيابي عنها، فعلمت أنّ الأمر آل إلى المعزّ بن زيري بعد هلاك أبيه إثر فتن وخطوب، وما حُمِّل النّاس من ضرائب ومكوس غير شرعيّة في سبيل أداء الشّرط الذي فرضه الحاجب عبد الملك المظفّر[1] على المعزّ من مال وخيل وعدّة يؤدّيها لسيّده كلّ عام[2].

ثمّ بعد الاستقرار والاستئناس شاهدت كم من منكر بفاس تعوّدته الأعين دون أن تنكره، وكم من حرمة أبيحت، وكم من حكم اشتبه، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وليس يردّ المنكر ويظهر الشّبهة ويقول الحقّ إلّا متعلّمون واعون، فمتى ما تعلّم الإنسان، وعى، ومتى ما وعى، كان أقوم على ردّ الشبهات والانتصار للحقّ.

وقد اجتمع لي في رحلتيّ إلى القيروان والأندلس ولقائي بجلّة الفقهاء والمحدّثين من العلم ما لا يسعني كتمانه، ولا يغيب عن نبيه أنّ أهل مدينتنا هذه مجبولون على طلب العلم وتطلّب العلماء، ولست ممّن يخفى خبره، إذ لم تمضِ إلّا مدّة قصيرة حتّى قصدني الطّلبة يطلبون سماع الفقه ورواية الحديث، ثمّ تبعهم عامّة النّاس يسألون في المسائل ويستفتون في النّوازل، فالتفّ حولي الخاصّة والعامّة، وأحببت ما رأيته منهم من حرص على العلم، وأحبّوا ما وجدوه فيّ من كفاية وكفاءة، والله وليّ التّوفيق.

بقيت مدّةً أحدّث النّاس وأسمعهم الفقه، مع الإجابة على ما يصلني من مسائل ويطرأ من نوازل، وكان أن وصلني خلال هذه المدّة خبر طائفة من النّاس يدّعون

١ــ أبو مروان عبد الملك المظفر ابن المنصور ابن أبي عامر، خلف أباه في الحجابة عام ٣٩٣هـ، وسار على سيرته في السياسات الداخلية والخارجية إلى أن توفي عام ٣٩٩هـ.

٢ــ روض القرطاس ص ١٠٨. وقد كان المعز تابعًا للعامريين يؤدي لهم الضرائب ويدعو لهم في المنابر.

التّصوّف اتّخذوا لهم مسجدًا بجبل فاس، يجتمعون فيه في أيّام ومواسم معلومة للاختلاء والذّكر وترديد القصائد الرّقيقة بألحان موزونة، وادّعاؤهم في ذلك أنّهم يعتزلون النّاس ومنكراتهم في سبيل الخلوة بالله وسقيا الرّوح بذكره، وكنت قد رأيت بالقيروان نازلةً تكاد تشبه هذه، حيث وُجد بظاهر القيروان مسجد يسمى بمسجد السّبت، يجتمع فيه طائفة من النّاس ليذكروا التّغبير[1] بالتّصوّف وغير ذلك في كلّ يوم سبت، ممّا يكاد يشبه فعل هؤلاء، فكان العلماء بين مجيز لهم ومنكر عليهم، وممن أنكر عليهم شيخي القابسيّ، حيث سمعته يقول في شأنهم: «القرآن يتلى، فلا يُتَّعَظُ له، ويُتَّعَظُ بكلام المخلوقين[2]». وما قال رضي الله عنه إلّا صدقًا، وإنّي لأقول في هؤلاء كقوله، وأزيد بالتّفصيل إن شاء الله.

فأمّا قولهم إنّهم في خلوة، فإنّما الخلوة خبيئة النّفس، ينقطع المرء فيها عن الآدميين لينفرد بنفسه لمحاسبتها وإدانتها وتخليتها ممّا يشوبها من شوائب، وتطهيرها ممّا يعلق بها من أدران. وتكون أيضًا للعبادة والتّفكّر والتّرقّي في معارج السّلوك إلى الله، لا مع الجماعة التي ينفي وجودها تحقّق الخلوة أصلًا، لغةً وشرعًا.

وأمّا قولهم في اعتزالهم إنّه إنّما لتحلية النّفس بالذّكر، وهو أمر لا ينكره عالم، فأقول إنّ الذّكر أقرب القربات، لكنّه أيضًا من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح فقط، فكم من ذاكر بلسانه غافل قلبه! والذّكر يكون في الخلوة، ويكون في الجلوة أيضًا، وهو في الجلوة أدلّ على الخشوع وحضور القلب وانتفاء الأغيار، وأعظم بكونه داعيًا للنّاس مؤثّرًا فيهم ومرغّبًا إيّاهم في ذلك، بل إنّ الذكر والدّعاء -جماعةً- مستحسن[3] عندي غير قبيح، على ألّا يكون بالتّصفيق والرّقص ورفع الأصوات، ولا يخفى ما يحدثه ذلك في النّفس

١_ التغبير: قصائد في الزهد تجتمع الطائفة من الناس على ترديدها بصوت واحد، وقد يتخللها بعض الممارسات.

٢_ فتاوى البرزلي ج ٢ ص ٣٨.

٣_ راجع: المعيار ج ٢ ص ٤٦٢.

من أوهام تكشف حجاب العقل عن صاحبها.

وأمّا قولهم باعتزال النّاس ومنكراتهم، فأقول: الأولى بهم مخالطة النّاس، مع العمل على الأمر بالمعروف، وإنكار المنكرات المتفشّية، وهو عين الدّين، وأوجب الواجبات المقوّية للصّلة بين المسلمين، والضّامنة للّوم الحميد الدّافع بالأمّة إلى تلافي أخطائها والتّراجع قبل الضّياع لقوله سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1]، ولقوله -سبحانه- في التّحذير من مغبة ترك هذا الواجب: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[2]، وأمّا الأحاديث في هذا المقام، فأكثر وأشهر من ذكرها.

وأما ادّعاؤهم التّصوّف، فالتّصوف أنواع ثلاثة: تصوّف العامّة، وتصوّف الخاصّة، ومن الخاصّة خاصّتها. فأمّا العوامّ، فتلعب بهم الأمزجة، وتحكمهم التّقاليد الموروثة والبدع المستحدثة، ويقومون خلف كلّ ناعق، ويعتقدون في الأشياء ما ليس فيها لخفّة عقولهم وفساد عقائدهم وقصور معرفتهم بالدّين. وأمّا الخاصّة، فتصوّفهم مجاهدة النّفس والزّهد والورع والتّزيّن بثوب التّقى، والانكباب على أعمال البرّ والإصلاح ونفع الخلائق، مع عقيدة متينة، وتبحّر في أصناف المعرفة، وعلم تامّ بالشّريعة ينجيهم مزالق الشّرك والبدع والأهواء والشّطحات. وأمّا خاصّة الخاصّة، فهم كنور أشعّ من السّماء، فأضاءت له جنبات الأرض، فدلّ الله به على سرّ من أسراره أُمما ران عليها ليل طويل. وما أرى هؤلاء إلّا من الصّنف الأوّل، المحكومين، اللّاعبة بهم أمزجتهم والمحدثين في دين الله بدعةً ظاهرةً.

وقد رأيت أنّ في التّغاضي عن فعل هؤلاء دون إنكاره وزجره إباحة للرّهبنة،

١_ سورة التوبة - الآية ٧١.

٢_ سورة المائدة - الآية ٧٩.

والطّائفيـة، والزّهـد المذمـوم، والابتداع في ديـن الله ما لم يكن فيه، والأخطر أنّه سـيفتح البـاب أمـام كلّ طائفة جمعتهـا صحبة أو هوايـة أو لوثة للاعتزال في مسـجد أو في جبل وادّعاء ما ادّعته غيرها، فنصير طوائف وأوزاعًا وفرقًا أكثر ممّا نحن عليه، وها هو مغربنا تتنازعه الفرقة، وتملؤه التّصدّعات، ويفتّه الشّقاق، ولا من يقول، فينكر، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. فكان بعد كلّ ما قلته وبيّنته للنّاس أن أفتيت بهدم المسجد[1].

كانت حادثة إفتائي بهدم هذا المسـجد إيذانًا بعداوة خفيّة سـيكنّها لي من لهم مصلحة في شـيوع هـذه الأفكار والممارسـات في المدينـة، ومن حالفهـم من أهل الملـق والتّزلّف، وأصحـاب المصالـح والأطـماع الدّنيويّـة الدّنيّـة، ممّـن يسـهّلون ويزيّنـون للنّـاس اتّباع سـبيل الدّروشـة والوقوع في هوّة الانزواء، والتّحوّل عن إنـكار المنكر والأمر بالمعروف ومواجهة الطّغاة والمستبدّين به، حتّى يجترحوا ما يشاؤون دون منكِر أو معترض. عداوة لم أكـن أعلم بنشـوئها إلّا بعد أن انتهى إليّ خبرها من أحـد الفضلاء، وفي الخبر أنّ عامل المدينة وحاشـية المتزلّفين له لم ترقهم فتواي بهدم المسـجد، وتقبيحي الملحاح لكلّ ما أراه في المدينة من منكرات. ومن ساعتها والأفكار تدور في رأسي، أترقّب فرصةً أستبين فيها: أأصبح إنكار المنكر منكرًا في منطق هؤلاء؟

بقيت رهين ظنوني إلى أن جاءت مناسبة دعيت إليها، فقرّرت حضورها على غير عادتي في إجابـة مثـل هاته الدّعـوات، وعزمي أن أفضي فيها بما ينوء به صدري، وأقطع الشّـكّ باليقـين، فـإن التقيت مع القوم على الحـقّ والمعروف، كان الوفاق ووحدة السّـبيل، وإن بورزت بسيف التّرهيب والوعيد والإعراض، كان الشّفاء لما في خاطري من وساوس.

جمعـت المناسـبة أغلب المنسـوبين للعلم والرئاسـة والجـاه والنّسـب في المدينة، وكان التّـداول حـول الشّـعر والأدب وبعـض الفقه كحـال هذا النـوع من المجالـس، ثمّ أثير

١ _ الديباج المذهب ج ١ ص ٣٣٩.

الحديث عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وضوابطهما، فوجدت مدخلًا لأفصل في الموضوع، وأبيّن مسؤوليّة كلّ مسلم وكلّ عالم وكلّ عامل، وما ينبغي على أهل الدّولة من واجبات، ثمّ توصّلت بالقول إلى أنّ الظّلم والطّغيان أصل كلّ منكر ورذيلة، والاستبداد والتعنّت أوج الحماقة وعين الرّذائل.

وهنا ران على المجلس صمت رهيب ألجم الأفواه وأنطق الأعين باتهامي، كأنّي بها تقول: «من أين جئت؟! وما الذي عاد بك؟! وكيف تجرّأت على خرق سلامنا؟! إن لم يرقك ما رأيت، فعد من حيث جئت غير مأسوف عليك...». ثمّ تكلّم أحدهم بنبرة متعالمة: «جميعنا كنّا بنفس غليانك وحماستك، صحيح أنّك حزت من العلم قسطًا كبيرًا، لكنّك ما تزال شابًّا، أنصحك بالتّركيز على تدريس طلبتك، ولا تتجاوز ذلك للتّدخل في شؤون المدينة، فإنّ للحكم أهله وللسّياسة أربابها». ورافق كلامه تواطؤ صبغ جلّ الوجوه.

أجابني هذا الموقف عن كلّ تساؤلاتي، وطرد الرّيبة والشّكّ من نفسي. لا أحد في المدينة سيقبلني أو يَأْزُر قولي، لا أحد مستعدّ للتّنازل عن ريع الشّيطان، عن الحظوة والمنصب الذي فُوِّتَ له دون وجه استحقاق في سبيل سكوته. أطللت على أبواب التّزلّف والمذلّة، فألفيتها زحامًا، ثمّ أتيت منبر الحقّ، فلم أجد كتفًا واحدًا يزاحمني عليه. أهكذا يجابَه صوت الحقّ ومناديه؟! والله لأنّ أكون المجهول عند السّلطان الجائر خير لي من أن أكون ذا الجاه المعروف عنده. اللّهم إنّ قومًا طغاةً تسلّطوا على مغربنا، فمالوا عن الحقّ وأمالوا كثيرًا من ضعاف القلوب والأحلام، اللّهم شتّت شملهم، وأبدل البلاد بمن يوّحد رايتها ويقمع ما انتشر بها من منكرات.

أمّا أنا، فلم أخلق لأستكين بعد الدّعاء، وأخضع بعد الشّكوى، وأُعَدَّ كأحد التّابعين؛ لست إِمَّعَةً إن أحسن النّاس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت[1]؛ لست ممّن يقلّد

١ ـ روى الترمذي في سننه [٢٠٠٧] من حديث حذيفة: {قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَكُونُوا

دينه وعقله وقلبه ولسانه لرجل، وإن كان من أهل السّلطان والرّياسة. أبدًا لن أسمح لأحد بإخراسي أو مصادرة حرّيّتي، لا مقام لي في مكان لا أقدّر فيه ولا أستطيع الصّدع فيه بالحقّ دون إدانة أو تهمة أو رقيب، لا مقام لي بين ظهراني قوم يحسدون ويمكرون ويتناجون بالإثم والعدوان ومناوأة الحقّ، قوم لا يأمرون بمعروف ولا ينكرون منكرًا، قوم حفظوا وتعلّموا كلّ شيء إلّا أنّ العلم أمانة والعالم وليّ أمر أمّته وأمينها عليها، يرشدها إن ضلّت، ويجيبها إن سألت، وينافح عنها إن هُضمت حقوقها، ولا يخاف في الحقّ لومة لائم أو انتقام جبّار طاغية.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[1]. وسأهاجر بديني من وطن الإنكار إلى وطن الإقرار، من وطن الخذلان إلى وطن يعينني أهله على ذكر الله ونصرة الدّين. لقد تنقّلت طويلًا في البلاد، سافرت إلى بلاد وبلاد، ورأيت كثيرًا من المسافرين والمهاجرين، صحيح أنّ الدّافع الأكبر لي كان امتلاك ما أنا فقير إليه من علوم ومعارف، لكنّي أدركت الآن أنّ التّملّك ليس الوجه الوحيد الذي يدفعنا للسّفر والهجرة. الهجرة هي أيضًا بحث عن السّعة والحرّيّة، ليست هروبًا إليها من ظالم غشوم، بل مطالبة ملحّة بها.

بالهجرة يُرغم الإنسان أنف عدوّه، ويدرك بها هدفه، وينال بها طليبته، ويحقّق كينونته، ويعلن عن وجوده في الدّنيا الواسعة ويبصمه في التّاريخ المديد، وإن طال الأمد، وأنا ولدت حرًّا، وسأطالب بالحرّية ما حييت، ومهما كلّفني الأمر من طاقة ووسع.

في الأيّام التّالية شرعت في جمع كتبي ولملمة الضّروريّ من حوائجي وتوديع أهلي وأحبّتي وطلبتي وصحبي وداعًا لا أدري أسيعقبه لقاء أم نعي، مخلّفًا ورائي شتاتًا من

إِمَّعَةً»؛ تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ؛ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا} والظاهرَ من إسناد هذا الحدَيث الضعف، وإن كَان الترمذي حسّنه، وعلَى أي حَال فإن معنى الحدَيث صحيح.

١ــ سورة النساء – الآية ١٠٠.

روحي، داعيًا الله أن يجمعه، ثمّ خرجت هائمًا على وجهي، موجّهًا وجهي إلى الله فاطري، طامعًا أن يهديني الصّراط المستقيم. فاللّهم إنّي استغثت بنورك السّاطع، فأرشدني، وقصدت أعتابك المقدّسة، فطهّر نفسي طهارةً تصلحني بها لخدمتك وخدمة دينك وعبادك المؤمنين، حتّى لا أكون إلّا منك وفيك ولك وإليك. اللّهم لا تفتنّي باليأس بعد الأمل، ولا بالعجز بعد العمل، ولا بالفضيحة بعد السّتر، ولا بالضّلال بعد الهداية.

اللّهم إنّ همتي قاصرة إلّا إن بلّغتها، وامتدادي مقطوع إلّا إن وصلته. اللّهم جلِّ لي الطّريق، واكشف عنّي الحجب، فلا أرى إلّا بك، ولا أسمع إلّا بك، ولا أنطق إلّا بك، ولا أخطو إلّا بك، ولا أصل إلّا إليك. اللّهم أجري الحقّ على لساني، ولا تخرسه إلّا عن قول اللّغو والكذب والزّور. اللّهم لا تجعلني ممّن يداهن ظالمًا، أو يتملّق لذي سلطان، أو يخضع لملك، أو يطبّع مع استبداد، برحمتك وعظيم سلطانك يا رحيم يا رحيم.

***

هكـذا ارتحلـت من وطنـي فاس[1]، وفي نيّتي حـجّ بيت الله الحرام، فـلا ملجأ لمن هو في حالتـي إلّا هو، طلبًـا لراحة البال وتجديد ما بلي منها طيلة هذه السّـنوات الطّويلة من التّقلّـب في البلاد ومعالجة أدواء العباد، غـير أنّي حينما وصلت مصر، وكنت لا أنوي إلّا المـرور منهـا، وجدت وقت الحـجّ فاتني، حيث إنّ حجّاج أقـصى المغرب يخرجون قرب شـهر الله المحرّم، فيذهب في سفرهم واستراحتهم عامّة السنّة حتّى يلحقوا الحجّ[2]. وأنا قد خرجت بعد المحرّم لما نزل بي واضطرّني، فلم يسعفني الوقت في لحاقه، كما أنّ ما لقيته في نفـسي مـن بحبوحة وراحة حملني على المكوث بها، ريثما يحين موسـم الحجّ، فأخرج في ركب الحجّاج.

ولأنّ في الصّـدف من الفوائد ما قـد لا يكون في المواعدة، فقد منّ الله عليّ بلقيا طائفة مـن العلماء الفضلاء، فرأيت أن أسـتثمر معهم وقتـي في تحصيل مزيد من العلم، وكانت روحـي محتاجـةً إلى السّـكون والطّمأنينة، فلم أجـد خيرًا من كتـاب الله لي مرهمًا ودواءً، فانكببت على دراسـته وشـغل السّـاعات الطّوال فيه، والتقى هذا النزوع الرّوحاني نحو مدارسة كتاب الله مع ما كان في نفسي من ميل لأخذ علم القراءات، ولم أكن قد تعمّقت في دراسـتها في صغري في فاس، لانشـغالي بعدُ بالفقه والحديث وعلوم الآلة، فسـبحان مسبّب الأسباب، هادي العباد الذي وفّقني لما أنا فيه.

كان أوّل من جلسـت إليه بالدّيار المصريّة العامرة، الشّـيخ المقرئ المسـند أبو الحسين

١ـ باستثناء ابن الأحمر الذي ذكر أن أبا عمران كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وبسبب ذلك أخرجه مـن فـاس الطغاة من أهلهـا العاملون عليها لمغراوة؛ وأبـي طالب المرواني الذي أشـار إلى رجوعه من الأندلـس إلـى فاس قبل خروجه في رحلته الثالثة نحو المشـرق، فإن جميع من ترجموا له سـكتوا تمامًا عن خبر رجوعه إلى فاس وأسباب خروجه منها، ما يدل على قصر المدة التي قضاها بها. انظر: بيوتات فاس الكبرى ص ٤٤؛ عيون الإمامة ص ١٦٨.

٢ـ الإصطخري ص ٤٦.

المصريّ[1]، فختمت على يديه القرآن الكريم بالقراءات السّبع عرضًا، ولم أنتقل إلى غيره حتّى وشّحني بإجازته. ثمّ انتقلت بعده إلى كبير المالكيّة بمصر، الشّيخ أبي عبد الله ابن الوشّاء[2]، فسمعت منه سماعًا كثيرًا، وكان عالمًا بالحديث واسع الرّواية فقيهًا تشدّ إليه الرّحال، كما كان ممّن تنسب إليهم الكرامات، وما ذلك إلّا لزهده وقوّة نفسه وشدّة مباينته لبني عبيد أصحاب مصر. كما سمعت عن أحمد بن نور القاضي[3] وغيره.

وبمصر سمعت أيضًا -في غير رحلتي هذه- عن الفقيه المالكيّ المتأدّب الشّاعر، صاحب التّواليف الكثيرة، القاضي عبد الوهّاب بن علي بن نصر[4]، وكنت بعد رجوعي من المشرق واستقراري بالقيروان وصلنا بها كتاب منه يخاطب الفقهاء في شأن الوصول إليها، فكنت ممّن رغّبه في الورود عليها وحبّبتها له[5]، غير أنّ ظروفه لم تسعفه في ذلك. كما لقيت بها جماعةً أخيرهم أبو الحسن البزار الفهريّ[6] ولم ألق مثله[7]. وبالعموم فقد كانت مدّتي بمصر عميمة النّفع جمّة الفائدة، وما إن وصل ركب الحجّ المغربيّ حتّى انضممت إلى ركابهم طائب النّفس، وكيف لا تطيب نفس مُيَمِّمَة كعبة ربّها ومعراج أسراره.

***

١_ عبد الكريم بن أحمد بن أبي جدار المصري، المحدث المقرئ المسند، توفي ٣٩٨هـ.

٢_ محمد بن أحمد بن محمد بن عبيد بن موسى، الفقيه المحدّث الزاهد القدوة، توفي بمصر عام ٣٩٧هـ.

٣_ ذكر تلقيه عنه عياض في ترتيبه، ولم أقف على ترجمته.

٤_ عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد البغدادي، القاضي الفقيه المحدث الثقة، من أيمّة المالكية بالعراق، توفي بمصر عام ٤٢٢هـ وله كتب مطبوعة.

٥_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٢٦.

٦_ أبو الحسن علي بن الحسن بن محمد بن العباس بن فهر البزار الفهري، الفقيه المحدث، توفي بعد ٤٤٠هـ.

٧_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٣٧.

بعـد أيّام شـاقّة المسـير دخلنـا أرض الحجاز، وهـي ديار العـرب المشـتملة على مكّة والمدينـة واليمامـة ومخاليفهـا[1]، ثمّ حثثنا المسـير إلى أن وصلنا ميقاتنا المـكانّي بالجحفة[2] حيث أحرمنا، وبعد أيّام أُخَر وصلنا مكّة[3] محرمين مُلبِّيَن مغبرّين منهكين ممّا أصابنا من مشقّة الطّريق ووعثاء السّفر.

ومكّـة قصبـة الحجـاز وأكبر مدنـه، حُجبت كالـدّرة بين شـعاب الجبـال، أبنيتها من حجارة، والمسـجد الحرام في نحو وسـطها، والكعبة المشرّفة في وسـط المسجد[4]. وما إن وقفت أمام الكعبة، حتّى زال عن جسـدي ما أصابه من إنهاك، وسـكنت كلّ جوارحي لإشراق الأنوار الرّبانيّة عليها.

ومـن مزيـد عنايـة الله بي أن هيّـأ لي بمكّة صحبـةً مغربيّةً من فضلاء أهل بلدنا، فسـدّ الغنيّ منّا حاجة الفقير الضّعيف، وقام بمؤونته وكسـوته، وأعانه على إيجاد منزل يسـتقرّ به، وقد أكرمني الله ببيت شـاركته مع أحد الأتقياء الزّهاد، فكنّا نتسـامر، ويحدّث بعضنا بعضًا بما شـاهده ووعاه وحفظه، وكثيرًا ما كنت أخشع لرقائق هذا العبد الصّالح، فأرقّ رقّـةً أصـير معهـا بين يديه كالمريد المترقّب لأيّة مشـاهدة أو إشـارة أو عطفـة قد يجود بها شيخه عليه، فسبحان من أجرى الحكمة على ألسنة من لا يُلتفت له من عباده.

ثـمّ بعد أداء مناسـك الحجّ والتّحلل من الإحرام غـاب عنّي زميلي فجأةً، فلم أَعْيَ في طلبـه إدراكًا منّي أنّه اسـتأنف سـياحته، فـكلّ واحد منّا ميسّر لما خلق لـه، ومنذور لقدر مرسوم، فاسترجعت الله على فقده، وحمدته أن أتحفني بصحبته في وقت كنت فيه أشدّ ما

١ــ ابن حوقل ج ١ ص ١٩؛ أحسن التقاسيم ص ٦٩.

٢ــ ويسمى اليوم برابغ في الشمال الغربي لمكة على بعد ١٨٣ كلم.

٣ــ في الطريق ما بين مصر ومكة. انظر: نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٤٥. وانظر أيضًا: البكري ج ١ ص ٣٢٨؛ الإصطخري ص ٢٧.

٤ــ ابن حوقل ج ١ ص ٢٨.

أكون حاجة لصحبة رجل مثله.

بعد انقضاء موسم الحجّ انفض الجمع، وانصرف القوم كلّ إلى وجهته، فيما خرجت أنا في صحبة من الأخيار راغبًا في زيارة مدينة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعلى طول المراحل العشر[1] الفاصلة بين مكّة والمدينة استذكرت مراحل هجرة النّبيّ الكريم ورفيقه الصّدّيق مرحلةً مرحلةً، وكم انجلى لي من سرّ، واستخلصت من عبرة وأنا أشاهد بعينيّ مواطن كنت قبل الحين أقرأ عنها في الكتب، وأحاول تصويرها في خيالي، ولا أخفي أنّ إحساسي بثقل الأمانة التي خلّفوها لنا زاد وعظم، فاللّهم اجزِ عنّا نبيّنا وصحابته خير الجزاء، ووفِّقنا ربَّنا لتحمّل ما أورثوه لنا من الأمانة وتبليغها للعالمين كما يرضيك عنّا آمين.

وصلت مدينة الحبيب المصطفى وأنا في غاية الانشراح والتّجلّي والتّأثّر ممّا استرجعته من ماضي السّلف الصّالح وعظيم جهاده، فنزلت عند أحد الكرماء من أهل مغربنا، واغتسلت وتطيّبت ولبست الأبيض الجديد من ثيابي، ووهبت نفسي للصّلاة في مسجد رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- والذّكر والإكثار من القربات وزيارة المزارات المستحبّ زيارتها للتّرحم والعبرة والتّفكّر.

والمدينة فيما رأيت أقلّ من نصف مكّة، وهي في حَرّة سبخة من الأرض، ولها نخيل كثيرة ومياه، وعليها سور. ومسجد رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في نحو وسطها، وقبر المصطفى الكريم من المسجد في شرقيّه قريبًا من القبلة، والجدار الشّرقيّ في بيت مرتفع[2]. وبعد أيّام بمدينة الحبيب المصطفى طابت فيها نفسي بزيارة روضته الشّريفة ومسجده المبارك، ودّعت الأخيار الكرام، وشكرت معروفهم، وعدت أدراجي إلى مكّة حتّى أتفرغ فيها للطّلب الشّريف الكريم، طلب الحديث والفقه.

***

١ــ ابن حوقل ج ١ ص ٤٠.

٢ــ ابن حوقل ج ١ ص ٣٠؛ أحسن التقاسيم ص ٨٠.

العلم فطنة ودراية وغنيمة، ومن سلاحه القلم والقرطاس جاش بجيوشه على كلّ حصن تَمَطَق بالجوزاء، وبمكّة حصن رجوت غنيمته، وهو شيخ الحرم، الحافظ المحدّث أبو ذرّ الهرويّ[1] المعروف ببلده بابن السّمّاك، فأتيته، وعرّفت بنفسي ورحلتي في طلب العلم كعادتي، وكانت له في النّاس نظرة وتمييز، فقبلني، وشكر لي، فلزمته مدّةً تمكّنت فيها المودة والصّداقة بيننا، لما رآه فيّ من نهم لتحصيل الحديث، ولما رأيت فيه من إمامة وثقة وتحرٍّ في أخذ الرّواية والمعرفة بالرّجال، هذا مع ما تحلّى به من فضل وزهد وتقشّف وتقلّل من الدّنيا، وقد وفّقني الله، فسمعت منه رواية الصّحيحين وغيرهما.

ثمّ رأيت أن الاغتراف من منابع العلم الأخرى بمكّة أمر واجب عليّ، لتكرّر غياب أبي ذرّ عن مكّة، وانتهازًا لفرصة وجودي بها، فانتقلت إلى الإمام المحدّث الثّقة أبي القاسم السَّقَطيّ[2] وسمعت عنه ما شاء الله من الحديث، كما سمعت من مسند الحجاز أبي الحسن بن فراس[3] وغيره. ومن وجوه من لقيت بمصر ومكّة وكتب معنا على الشّيوخ، أبو عمرو الدّاني[4] قبل أن يرحل إلى بلاده بعد خروجي من مكّة إلى العراق عام تسع وتسعين وثلاثمائة للهجرة[5].

***

١ـ عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله الهَرَويّ، المالكي، الحافظ المحدث المجود العلامة، شيخ الحرم، اشتهر بالفقه والتصوف حتى صار فيهما إمامًا، على أن أكثر ما اشتهر به الحديث، حيث تعد روايته لصحيح البخاري أصح الروايات، وأخذه عنه بالإجازة ثلة من الأعلام كابن عبد البر والخطيب البغدادي، توفي عام ٤٣٤هـ. راجع: روايات الجامع الصحيح ونسخه ج ١ ص ٣١٩ مع الهوامش.

٢ـ أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن أحمد بن جعفر البغدادي، السقطي، المجاور، الإمام المحدث الثقة، توفي عام ٤٠٦هـ.

٣ـ أبو الحسن أحمد بن إبراهيم بن أحمد العبقسي المكي، القاضي، المحدث الثقة، توفي عام ٤٠٥هـ على خلاف.

٤ـ عثمان بن سعيد بن عثمان، المالكي، الحافظ المحدث، بلغ في علم القراءات الغاية حتى صار مرجعًا لمن جاء بعده، قام برحلة علمية عام ٣٩٧هـ قادته إلى القيروان ومصر والحجاز، حيث أخذ العلم عن طائفة من العلماء قبل أن يعود إلى الأندلس عام ٣٩٩هـ ويتصدر بها للإقراء، توفي بدانية عام ٤٤٤هـ مخلفًا تراثًا علميًّا زاخرًا وتصانيف مشهورةً.

٥ـ الصلة ج ٣ ص ٨٨١؛ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٠.

كانـت بغـداد مهوى همم طلبـة العلم وقبلة العلـماء، وقد وصلني أثنـاء مقامي بمكّة أخبار علمائها وتقدّمهم على غيرهم في علم الأصول العقديّ، وعلى رأسهم رئيس مالكيّة العراق، وسـيف أهل السّـنّة في زمانه، وإمام متكلمي أهل الحقّ في وقتنا[1]، القاضي أبو بكر الباقلّانيّ[2]. وقد كانت أخبار مناظراته في بغداد عن السّـنّة وطريقة الحديث بالجدل والبرهـان أمـام رؤوس المعتزلة والرّافضـة والقدريّة وألوان البدع رغـم ما لهم من دولة وظهور[3] لا تخفى عن مسلم في كلّ المشرق، فلم يكن لي بدّ من قصده، فشددت الرّحال وجهّزت الرّاحلة وخرجت قاصدًا بغداد، أعظم مدن العراق.

وصلت الكوفة بعد نحو من ثلاثين مرحلة تفصلها عن مكّة[4]، ومن الكوفة توجّهت دون إبطـاء إلى بغداد لأصلها بعد أربع مراحل[5]، فألفيتها من أعظم مدن الإسـلام، كلّ جيّـد بها، وكلّ حسـن فيها، وكلّ حاذق منها، وكلّ ظرف لها، طيّبة الهواء، أشـهر من أن توصف وأحسن من أن تُنعت وأعلى من أن تُمدح.

وبغداد مدينة محدثة، أحدثها أبو العبّاس السفّاح[6]، ثمّ بنى المنصور[7] بها مدينة السّلام،

١ـ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٤٥.

٢ـ أبـو بكـر بن محمد بـن الطيب المعروف بالباقلاني، الأشـعري العقيـدة، المالكي المذهـب، من أعلام الإسـلام فـي علم الأصول وعلم الكلام، لقب بشـيخ السـنة ولسـان الأمة لكثرة مناظراتـه مع أصحاب الملل والفرق المخالفة وقوة حجته، توفي عام ٤٠٣هـ.

٣ـ سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٥٥٨.

٤ـ ابن حوقل ج ١ ص ٤٠.

٥ـ ابن حوقل ج ١ ص ٢٣٥. وفي الطريق ما بين مكة العراق انظر: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٩٠.

٦ـ أبـو العبـاس عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشـم بن عبد مناف، الملقب بعد موته بالسفاح، أول خلفاء بني العباس، توفي عام ١٣٦هـ وعمره قرابة الثلاثين على خلاف.

٧ـ عبد الله بن محمد بن علي، أبو جعفر المنصور، ثاني الخلفاء العباسـيين، والمؤسـس الحقيقي للدولة، تولـى عـام ١٣٦هـ بعهد أخيه السـفاح. امتـاز بالجد والحزم والصرامة والحرص الشـديد على شـؤون الحكـم والإدارة كافـةً، كما عرف عهده مجموعة من الثورات. توفي عام ١٥٨هـ وله من العمر ٦٨ عامًا

وبقي الخلفاء بعده يزيدون فيها حتّى جاءت غاية في الإحسان[1]. وببغداد من العلماء والفقهاء والقرّاء والأدباء أهل الخصائص والظّرافة والقرائح واللّطافة ذوي الصّيت ما يندر إحصاؤهم في غيرها من البلاد، فكان أوّل من قصدته بها القاضي الباقلّانيّ، طالبًا ما فتح الله به عليه من علم العقليّات[2]، ولما له فيه من باع وظهور وسيرة حسنة، ولكوني أيضًا لم أطلب هذا العلم قبلًا بسبب عدم اشتغال أهل بلدنا ولا خوضهم في المعقولات[3].

ألفيت حلقة القاضي عظيمةً كثيرة الطّلبة، وهو وسطها معظّم مهاب، لا يخفى عن سامع علمه وحفظه وفطنته وواسع معرفته بعلم الكلام، له فيه حسن خاطر وجودة لسان ووضوح بيان وصحّة عبارة، فلزمت المجلس إلى أن انفض، ثمّ أتيته وعرّفت بنفسي ورحلتي في طلب العلم كما هي العادة، فرحّب بي الشّيخ وخفض لي جناحه وأحبّ ورودي عليه بحضور طلبته، وبينما نحن في هذا المجلس المبارك والرّفقة الطّيّبة نتحادث بحسن ورويّة، إذ ازدحم النّاس بمجلس أبي بكر، وكان قد شاع ببغداد أنّ فقيهًا مالكيًّا من أهل المغرب قدم، وكان هندامي ولكنتي يفضحان مغربيّتي أينما حللت، فجاؤوا وكلّ منهم يضمر نيّةً، فمن سائل، ومن مختبر، ومن فضوليّ.

على خلاف.

١_ انظر: أحسن التقاسيم ص ١١٩.

٢_ سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٥٤٥.

٣_ سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٥٥٧. يجب الإشارة هنا إلى أنه كان للباقلاني بوصفه إمامًا لمالكية العراق، دور كبير في انفتاح المغاربة -وهم مالكية- على علم الكلام، وعلى المذهب الأشعري فيه خاصةً، إضافةً طبعًا للتحديات الفكريّة والمذهبية الواردة من خارج المجتمع الإسلامي أو النابتة فيه، بعد أن كان علماء المغرب متحفظين نحوه، ولا يكادون يخوضون فيه إلى حدود القرن الرابع. وقد رأينا كيف أن الباقلاني أجاز أبا عمران في كل كتبه، وهي العمدة في المذهب الأشعري، ما يدل على أنه كان لأبي عمران بسبب مكانته العالية وتلاميذه الكثر دور في نشر المذهب الأشعري بالمنطقة، والذي سيعرف تركزه فيما بعد مع الموحدين بالخصوصية التي ارتبطت بهم. ولكن يجب ألا نغفل عما قاله ابن خلدون حين جعل الأشعرية طريقتين، طريقة قديمة هي طريقة الباقلاني، وهي التي أخذها أبو عمران ومعاصروه كالجويني، وهي لا تمزج مباحث علم الكلام بالفلسفة. وطريقة متأخرة ظهرت بعد الغزالي، وتبلورت مع الإيجي، وهي تخلط بين مباحث الفلسفة وعلم الكلام، وهي التي أخذ بها المهدي بن تومرت.

وكان من الطّبيعيّ أن تصدر منهم مسائل أجبت عنها كلّ بقدر فهمه، وشفيت غليل السّؤال، وبينما نحن نتجاذب الحديث ونتناول من الفقه أصولًا ودقائق أثارها السّائلون، إذ برجل -قيل لي فيما بعد إنّه شافعيّ- يدخل المجلس، ويرخي السّمع قليلًا، كأنّه يستأنس أو يتأكّد من شيء، ثمّ ألقى سؤاله بحدّة؛ تطلّعت إلى الرّجل قليلًا، ثمّ أجبته على قدر سؤاله دون أن أفصّل أو أخوض في مسألة لا أعلم مدى علم مثيرها وتعمّقه في بابها، فطالبني بالحجّة على جوابي، حينئذ تيقّنت أنّ الرّجل إنّما جاء مختبرًا، فأطرقت قليلًا ألملم شتات ذهني، حتّى إذا ما نطقت، جئت بالتّفصيل الشّافي الكافي، وبينما أنا في إطراقي وقبل أن أشرع في التّفصيل إذ قام شابّ تبدو عليه علامات النّجابة، وقال للسّائل: «أصلحك الله، هذا شيخ من كبار شيوخنا، ومن الجفاء أن تكلّفه المناظرة من أوّل وهلة. ولكن أنا أخدمه في نصرة هذه المسألة وأنوب عنه فيها، الدّليل على صحّة ما أجاب به الشّيخ -حرسه الله تعالى- كذا وكذا»، فاعترضه الشّافعي فيه، ثمّ انفصل الشّابّ المالكيّ من اعتراضه حتّى خلص إلى الدّليل.

والحقيقة أنّ الشّابّ أجمل الكلام في المسألة بلا إخلال ولا إطناب، وناب عنّي في الجواب، وكان فيه ذا كفاية، فما كان من السّائل -وقد تبيّن أنّه من أهل الإنصاف- إلّا أن قام إليه وقبّل رأسه، وقال: «أحسنت يا سيّدي وحبيبي، أنت والله شيخ المذهب حين نصرته». وقد جرت في هذا المجلس مسائل غيرها[1].

ومن ساعتها وأنا ملازم مجلس أبي بكر أسمع منه في باب علم الأصول سماعًا لم أسمع مثله، رغم أنّي كنت قد طلبته بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسيّ، وأبي محمّد الأصيليّ، وكانا عالمين بالأصول. فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر، ورأيت كلامه في

١ـ راجع: ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٨؛ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٠.

الأصـول والفقه، والمؤالـف والمخالف، حقرت نفسي، وقلت: لا أعلم من العلم شـيئًا. ورجعت عنده كالمبتدئ[1]، وكان رضي الله عنه يعجبه حفظي، ويقول: «لو اجتمعتَ في مدرسـتي أنـت وعبد الوهّاب بن نـصر، وكان إذ ذاك بالموصل، لاجتمع فيه علم مالك، أنت تحفظه، وهو ينصره. ولو رآكما مالك، لسرّ بكما[2]». ولم أنتقل إلى غيره حتّى أجازني في جميع تواليفه، فحدّثتُ بها[3] فيما بعدُ خلقًا كثيرًا.

ثمّ سمعت بعدئذ عن طائفة من الكبار، كان أوّلهم الإمام المحدّث، مقرئ العراق، أبا الحسـن ابن الحماميّ[4]، وعنه أخذت القراءات عرضًا[5]، وكان صادقًا ديّنًا فاضلًا حسن الاعتقـاد، متفـرّدًا بأسـانيد القـراءات وعلوّها في وقتـه[6]. ثمّ انتقلـت إلى الإمام الحافظ المحقِّـق الرَّحَّـال أبي الفتح ابن أبي الفوارس[7]، وكان مشـهورًا بالصّلاح والمعرفة، وعنه سـمعت كتاب تصحيف المحدّثين للدّارقطنيّ[8]، وجملة من أماليه، وقرأت عليه ما شـاء الله مـن الحديث. وأخذت عن شـيخ العراق، الإمام القـدوة أبي أحمد الفرضيّ[9]، الجامع للعلم والقرآن والإسناد. وأخذت عن شيخ الشّافعية الإمام أبي الحسن ابن المحامليّ[10]، وكان عجبًا في الفهم والذّكاء وسعة العلم رغم حداثة سنّه.

١ـ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٤٧.

٢ـ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٦.

٣ـ راجع: فهرسة ابن عطية ص ٧٥.

٤ـ علي بن أحمد بن عمر بن حفص المعروف بابن الحمامي، مقرئ العراق في وقته، توفي ٤١٧هـ.

٥ـ الصلة ج ٣ ص ٨٨١.

٦ـ تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٣٢.

٧ـ أبو الفتح محمد بن أحمد بن محمد بن فارس بن سهل بن أبي الفوارس البغدادي، توفي عام ٤١٢هـ.

٨ـ فهرسة ابن خير ص ١٧٣.

٩ـ أبـو أحمـد عبيد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي مسـلم البغـدادي، الفرضي، المقرئ، الإمام الثقة الورع الدين، توفي عام ٤٠٦هـ.

١٠ـ أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن القاسم الضبي البغدادي، المعروف بابن المحاملي، الإمام، من أعلام الشافعية، توفي عام ٤١٥هـ وله سبع وأربعون سنة.

وسمعت من الفقيه المحدّث القاضي الكوفيّ أبي عبد الله الجعفيّ[١] أثناء تواجده ببغداد، وكان ثقةً فاضلًا جليلًا، يقرئ القرآن، ويفتي في الفقه على مذهب أبي حنيفة. وأخذت عن الشّيخ الصّالح أبي أحمد بن جامع الدّهان[٢]. كذلك أخذت ما عند مسند العراق، الشّيخ الصّدوق أبي الفتح هلال الحفّار[٣]. وسمعت الحديث عن أبي الحسن أحمد بن محمد بن موسى المعروف بالمجبر[٤]، وحدّثت عنه[٥]. وسمعت عن أبي الحسين القطّان[٦] كتاب التّاريخ الكبير للبخاريّ[٧]. وسمعت من القاضي أبي العبّاس الكرخيّ[٨]، ومن أبي عبد الله ابن بكر الرّازي[٩]، وأخذت وسمعت عن غير هؤلاء كثير[١٠].

وقد استغرقت منّي ملازمة مجالس العراق والأخذ والسّماع من جلّة علمائه بقيّة عام

١ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين الجعفي، المعروف بابن الهرواني، القاضي الحنفي، الثقة، توفي عام ٤٠٢هـ.

٢ـ محمد بن عبد الله بن أحمد بن القاسم بن جامع أبو أحمد الدهان، محدث ثقة، توفي ٣٩٩هـ.

٣ـ أبو الفتح هلال بن محمد بن جعفر بن سعدان الكسكري البغدادي، المحدث الثقة، توفي عام ٤١٤هـ.

٤ـ أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن القاسم بن الصلت البغدادي، محدث مسند ثقة، توفي عام ٤٠٥هـ.

٥ـ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٧٩.

٦ـ أبو الحسين محمد بن الحسين بن محمد القطان البغدادي، محدث ثقة، توفي عام ٤١٥هـ.

٧ـ رواه عن القطان عن المستملي عن أبي أحمد الدلال عن البخاري. فهرسة ابن خير ص ١٧٤.

٨ـ ذكره عياض بأبي العباس الكوخي وهو تصحيف بيّن. ولعله أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي سعيد الكرخي، القاضي، المعاصر لتلك الفترة، ولم أقف على عام وفاته.

٩ـ هكذا في الترتيب، ولعله قصد محمد بن بكران بن عمران بن موسى بن المبارك أبا عبد الله البزاز، المعروف بابن الرازي، المحدث الثقة، توفي ٤٠٢هـ.

١٠ـ وقد اختلط الأمر على الحميدي ومن نقل عنه كالضبي حين ذكر في جذوته أن أبا عمران أخذ بالعراق عن أبي الفضل عبيد الله بن عبد الرحمن الزهري المتوفى عام ٣٨١هـ، وكذلك حصل مع عياض ومن نقل عنه حين ذكر في ترتيبه أن أبا الحسن علي بن إبراهيم المستملي المتوفى عام ٣٥٣هـ من جملة شيوخ أبي عمران. كما ذكر عياض أخذه عن آخرين كأبي الحسن ابن الخضر، وقد وقفت على غير واحد بهذا الاسم دون أن أجد له صلةً بأبي عمران، وأبي الطيب المحمدي، وأبي الحسن ابن الرفك، وأبي القاسم الصفري، وأبي الحسن ابن الفضل العطار، ولم أقف على تراجمهم، ولعل في أسمائهم تصحيف، والله أعلم.

تسع وتسعين وثلاثمائة وعام أربعمائة[1]، فالحمد لله على سابغ فضله وبالغ نعمه. وفي موسم الحجّ التّالي استعددت للخروج إلى مكّة، ونيّتي حجّة ثانية أسقي بها روحي، وأستخير الله في خطوتي التّالية.

بعد رجوعي من العراق إلى مكّة وقضاء مناسكي على الوجه المقرّر عندنا، قرّرت تدارك ما فاتني من مرويات أَبي ذرّ الهرويّ، فلما أتيته، ألفيته غائبًا في سراة بني شبابة موضع سكناه، فرأيت أن أغتنم الوقت، ولم يبقَ لي بمكّة ما آخذه عن غيره، فأتيت خازن كتبه[2]، وطلبته كي يُخرج إليّ من كتب الشّيخ ما أنسخه ما دام غائبًا، فإذا حضر، قرأته عليه. فاعتذر الخازن عن إجابتي، وقال: «لا أجترئ على هذا، ولكن هذه المفاتيح إن شئت أنت، فخذ، وافعل ذلك». فلم أجد ما يمنعني من قبول اقتراحه، فسلّمني المفاتيح، وأخرجت ما أردت، وما إن سمع أبو ذرّ بذلك حتّى ركب، وطرق مكّة مغضبًا، وأخذ كتبه، وأقسم ألّا يحدّثني بعدُ أبدًا![3] ولست أدري وجهًا لانزعاجه[4]، فالعلم مشاع، وطلبه بأيّ وجه مباح، وأنا لم أجترح جرمًا أو آتي منكرًا أؤاخذ عليه. ولكن للنّاس فيما يرون مذاهب، فلربّما بدا للشّيخ ما لم يبدُ لي، فجابهني بالجفاء والقطيعة، فصرنا معارف بعد أن كنّا أصدقاء كما يقول أهل بغداد، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

***

١ـ سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٥٤٥.

٢ـ يذكر عياض أن الكتب كانت عند جارة أبي ذر بمكة. ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٤.

٣ـ الصلة ج ٣ ص ٨٨٢.

٤ـ وقد علق الذهبي على هذا الموقف بقوله: (... وما لانزعاج أبي ذر وجه، والحكاية دالة على زعارة الشيخ والتلميذ رحمهما الله). سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٥٦١. فيما عقب ابن بشكوال وغيره على هذه الحكاية بـ: (... أن أبا عمران كان بعد ذلك إذا حدّث عن أبي ذر شيئًا مما كان حدّثه قبلُ، يُورِّي عن اسمه ويقول: أخبرني أبو عيسى). الصلة ج ٣ ص ٨٨٢.

اليـوم صرت قـادرًا على اسـترجاع كلّ ما عشـته ورأيتـه وتلقّيته طيلة هذه السّـنوات الطّويلة من التّنقل في البلاد -كأنّي رحّالة فضوليّ يأبى الشّـبع- بصفاء ذهن تامّ، فمزاحمة الرُّكَب في المجالس، ومعالجة معادن البشر، وتجربة كلّ الأحاسـيس الإنسانيّة والحالات النّفسيّة، ومخالطة الطّبقات المتباينة أنضجتني، فشتّان بين الفتى الفاسيّ موسى بن عيسى المتعطّش للاندلاع في الأفاق كأنّه نار مضطرمة، وبين أبي عمران المحلّى بين النّاس بالشّيخ والإمام والفقيه.

شـتّان بين اليوم والبارحة، شـتّان بين ما كنته وما صرته. إنّي اليوم أكثر إدراكا لحقيقة -شـاء الله أن يؤجّلهـا لحكمـة يعلمهـا ومعنى ذقت نتفًـا منه- وهي أنّي لـن أقضي كامل عمـري في المطاف والتّقلّب في الدّيار والبلاد. صحيـح أنّ دثار الغربة كان يثقل روحي، والنُّقلـة مـن منـزل إلى منزل سـوء عيش لا يخفى عـلى مجرّب، لكـنّ الله أعانني بسـكينة روحانيّـة وقوّة جسـد ويقين قلبـيّ وصبر جميل. وأعظم بهجة هـي أنّي اليوم وبعد كلّ ما فـات، لا أجـد في نفسي حسرةً على شيء فاتني مـن دنيا أصيبها، أو امرأة أنكحها، أو جاه أنافس عليه الرّاكعين والمتزلّفين.

إنّي من الله، وفي الله، وإلى الله، ولا طمع لي إلّا في أن يتقبّلني بقبول حسن، ويستعملني استعمالًا حسنًا، ولله أن يصنع بعُبَيده الفقير ما يشاء.

في بغـداد نشـأت في ذهنـي فكـرة العـودة إلى القـيروان والاسـتقرار بهـا، وفي مكّـة اختمـرت، وطاب قلبي بها، ومالت نفسي إليها، والنّفس بعد الميل تضيق بالبعد التّنائي، ولئن كنت حُملت حملًا على فراق أهلي وقرابتي، وهجر وطني فاس، وهي مسـقط رأسي وشِغاف قلبي، فإنّ القيروان أحبّ البلاد بعد فاس إلى قلبي، ولي فيها دار سكنتها، وقوم

جاورتهم، وشيوخ أخذت عنهم، وصحب زاملتهم، وكرام سبق إليّ منهم المعروف، وسمعة طيّبة لم يعكر صفوها حاسد أو نمّام. ثمّ بعد هذا وأهمّ منه، فإنّه لم يبقَ لي بمكّة مقام، ولست أنوي مجاورتها.

فتوكّلت على الله تعالى، واستسلمت إليه بكلّيّتي، وما هي إلّا مدّة قصيرة وانضممت إلى آخر قوافل الحجّاج المغاربة العائدين إلى بلادهم، وفي ركابهم غادرت مكّة وأنا قادر على النّظر إلى الطّريق الذي سأسلكه مخبتًا إلى ربّي وفي قلبي أنّي أعود إليها ثانيةً حاجًّا أو معتمرًا.

فقط هي مدّة الرّحلة، ووجدت نفسي في القيروان[1]، ولم تكن المدينة متغيرّةً في شيء عمّا تركتها عليه، وفي الحين توجّهت إلى داري وتسلّمتها من القائمين لي عليها بعد أن أدّيت ما علق في ذمتي لهم طيلة مدّة غيابي عنها، ثمّ وضعت بها متاعي، واسترحت قليلًا، وفي الغد خرجت قاصدًا مجلس شيخي القابسيّ وفي نفسي شوق إليه، فلقيت عنده من العلماء والطّلبة والأخيار جمًّا غفيرًا، منهم من عرفت، ومنهم من لم أعرف.

وبعد أن انفضوا تسنّى لي التّخلّص إلى شيخي والاجتماع به منفردًا، فأنست بالسّكون إليه، وانشرح هو بلقائي، وأبدى لي من المبرّة والاحتفاء ما يليق بالمتحابّين في الله، فلمّا أخبرته بنيّتي الاستقرار بالقيروان وعزمي الجلوس للإقراء بداري بها، زاد حبورًا وفرحًا، وأثنى على قراري، ودعا لي دعاء الوالد لولده.

ثمّ شرع يطلب أخباري، فحكيت له -ولبعض من انضمّ إلينا بمجلسه للتّرحيب بي- أطرافًا من رحلتي ومن لقيت أثناءها من شيوخ، فزاد إجلالهم لي وتوقيرهم إيّاي،

---

١ _ عاد أبو عمران إلى القيروان على الأرجح في النصف الأول من عام ٤٠١هـ بعد انتهاء موسم الحج مباشرةً، لأن النصف الثاني منه شهد ثورة أبي جراح على الحاكم بأمر الله الفاطمي، ما أدى لانقطاع الطرق وحرمان الحجاج من كل الآفاق من الوصول إلى مكة باستثناء أهل اليمن ونفر يسير من المجاورين (انظر: البيان ج ١ ص ٢٥٩). أو قد يكون عاد إليها عام ٤٠٢هـ، وهو ما لا نرجحه، وقد ثبت -من ترجمة بعضهم- أنه لقيه بالقيروان في هذا العام (انظر: الصلة ج ٣ ص ٨٨٢).

وعظم شأني بينهم، وما هو إلّا قليل حتّى شاعت في القيروان أخبار رجوعي من المشرق وجلوسي للإقراء[1] في داري، فقصدني الطّلبة من القيروان وغيرها، حتى ازدحمت بهم داري ازدحام النّحل بالخليّة.

وبالجملة فقد صار معاشي بالقيروان هنيئًا مريئًا، خاصّةً بعد أن تزوّجت امرأةً صالحةً قانتةً، لاءمت طبعي، وسلت بها نفسي، وزاد بها سكوني، وعوّضني الله بها خيرًا.

ولأنّ الزّمان يرمي الإنسان في ساعة رضاه، توفّي شيخي أبو الحسن القابسيّ بعد فترة قصيرة من حلولي بالقيروان، فأصابني لفقده حزن ما كنت أظنّه يصيبني لفقد أحد من الأناسيّ، فأبو الحسن أحسن إليّ، وقرّبني، وخصّني بعلمه وحنوّه وبرّه، فكان لي أبًا ثانيًا، له عليّ حقّ البرّ في الحياة وبعد الممات، فعاهدت نفسي ألّا أقطع زيارة قبره، وأن أصله بالاستغفار والدّعاء. وقد بقيت مخلصًا لعهدي مواظبًا قائمًا عليه عامًا كاملًا، حتّى وقف عليّ ذات ليلة في المنام بحلّته البيضاء ووجهه المبشور، وقال: «نوّرت قبري نوّر الله قبرك[2]». فأدركت حينئذ أنيّ وصلت شيخي بشيء ممّا تقدّم منه إليّ من إحسان وبرّ، وأدّيت بعض ما له عليّ من حقّ، كما طبت بإدراكي طرفًا من الصّلاح الذي بشّر به النّبيّ الكريم كلّ داع لوالديه بعد موتهما، فالحمد لله ربّ العالمين.

بعد موت شيخي القابسيّ بمدّة قصيرة رأيت ترك الإقراء جملةً، وتكريس نفسي وجهدي ووقتي لمدارسة الفقه ورواية الحديث الشّريف، فصرت أجلس للمذاكرة والسّماع في داري من الغدوة إلى الظّهر، فبان ما كان مكتومًا من علمي لعامّة النّاس، ولطلبة العلم في القيروان بوجه خاصّ، حتّى فارق أغلبهم شيوخهم، وقصدوا مجلسي

١ـ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٨؛ الصلة ج ٣ ص ٨٨٢.
٢ـ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٤.

استزادةً واجتهادًا في نيل غنيمة سهلة، كما حصل مع طلبة الشّيخ أبي بكر بن عبد الرّحمن[1] حين خالفوا شيخهم إليّ، ما أوغر قلب الشّيخ، ودعاه لأن يحمل عليّ، ويغضب من فعل طلبته، ويدعو عليهم، ويهجرهم![2]

وفي عام ستٍّ وأربعمائة توفّي باديس[3] بن المنصور بن بلكين بن زيري ملك صنهاجة، وتولّى مكانه ابنه المعزّ[4]، وبويع بالمهديّة وسنه ثماني سنين وأربعة أشهر[5].

وقد أباحت كلمة قالها المعزّ[6] للعامّة قتل كثير من الشّيعة الموجودين بالقيروان وانتهاب دورهم وأموالهم، وتمادى الحال بهم لأن يقتلوا من اشتبهوا فيه، ومثّلوا بزعمائهم، وخرج الأمر عن القيروان إلى المهديّة وسائر بلادهم، فقُتلوا حيث وجدوا،

١ـ أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني، شيخ فقهاء القيروان في وقته مع صاحبه أبي عمران، توفي عام ٤٣٢هـ.

٢ـ (قال كبار أصحاب أبي بكر بن عبد الرحمن: نسير إليه. وقالوا إنه يعزّ على شيخنا ذلك. وتروّضوا في الحضور عنده. ثم عزموا على ذلك. قالوا إنه لا يجمل بنا التخلف عن مثله، فأسخطوا شيخهم حتى يحكى أنه دعا عليهم، وهجرهم) ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٨. وقد نشأت بين أبي عمران أبي بكر بن عبد الرحمن مشاحنة أنتجتها المنافسة على النفوذ العلمي في القيروان وإفريقية على شاكلة ما يحدث عادة بين فحول العلماء حين يجتمعون في القُطر الواحد. راجع: أبو عمران الفاسي حافظ المذهب المالكي ص ٤٦. وقد أشار أبو حيان التوحيدي إلى أنه قلما تصح الصداقة بين أهل العلم لما ينشأ بينهم من منافسة وتماحك وتحاسد. الصداقة والصديق ص ٣٣. وعدّ ابن حجر هذه المنافسة وعدم المحاباة بين أهل العلم من أعظم النعم فقال: (قَالَ بَعْضُ أَكَابِر أَئِمَّتِنَا: إِنَّ عَدَمَ مُحَابَاةِ الْعُلَمَاء بَعْضهمْ لِبَعْضٍ مِنْ أَعْظَم مَزَايَا هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي أَعْظَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِمْ النِّعْمَةَ) الفتاوى الفقهية الكبرى ج ٣ ص ٣.

٣ـ ثالث أمراء الدولة الزيرية الصنهاجية بإفريقية، حكم في الفترة ما بين ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م و٤٠٦هـ/ ١٠١٦م معترفًا بالطاعة والولاء للفاطميين.

٤ـ حكم في الفترة ما بين ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م و٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، وقد بلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها بفضل استنارته واهتمامه بالعلماء ورعايته للفنون والآداب، وقد بقي مواليًا للفاطميين رغم انحرافه عن المذهب الشيعي وتبنيه المذهب المالكي إلى حدود عام ٤٤٠هـ، حيث قطع الدعوة لهم، وانضم للمعسكر السني بدعوته للخليفة العباسي في المنابر، فكان فعله هذا سببًا في تسريح الفاطميين لعرب بني هلال الذي خربوا القيروان وكامل إفريقية.

٥ـ البيان ج ١ ص ٢٦٧.

٦ـ (... وكبا به فرسه ذات يوم، فنادى مستغيثًا باسم أبي بكر وعمر، فسمعته العامة، فثاروا لحينهم بالشيعة، وقتلوهم...) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١١.

وأُحرقوا بالنّار، فلم يُترك أحد منهم بمدن إفريقيّة وأعمالها إلّا من اختفى، وقد راح ضحيّة لهذه الفتنة قوم من العلماء والأبرياء لم يكن لهم فيها يد[1]، ولكنّها الفتنة أكبر من القتل وأشدّ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وقد استمرت الحال على اضطرابها بإفريقيّة من تنافر العامّة على الشّيعة، وحروب المعزّ مع حمّاد بن بلكين المستقلّ بمدينة القلعة بجبل كتامة[2]، إلى أن عرفت بعض الاطمئنان عام عشر وأربعمائة. ولعمري فما كلّ هذه القلاقل والفتن والحروب إلّا من منشأ واحد هو تفرّق الكلمة وفساد النّيّة وتفاهة الرّسالة والقصد وغياب الإمام الحقّ، وأين هؤلاء المتصارعون على عروش زائلة من الإمامة التي هي: حمل الكافّة على مقتضى النّظر الشّرعيّ في مصالحهم الأخرويّة والدّنيويّة الرّاجعة إليها، إذ أحوال الدّنيا ترجع كلّها عند الشّارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشّرع في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا[3]؟!

وعلى السّلطان الحقّ -وإن فشا في زماننا تعدّد السّلاطين- أن تجتمع فيه شروط الإمامة، من إسلام: لأنّه لا يحكم المسلمين كافر؛ ومن تكليف: لأنّ غير المكلّف لا يلزمه أمر؛ ومن عدالة تامّة: بشروطها المعلومة شرعًا وسلوكًا من عدل وصلاح واستقامة وبراءة ومروءة وغيرها؛ ومن عقل: وهو أداة الإدراك والفهم والتّفكير في كلّ ما من شأنه نفع الأمّة وترقيتها؛ ومن علم: كافٍ وواجب والمستجيب لجلالة التّكليف المنوط به؛ ومن كفاية: وهي جامعة للكفاءة والمقدرة على تأمين البلاد وسبُلها، وإنصاف المظلومين والضّرب على أيدي الظّالمين، والدّفاع عن المسلمين إذا دهمهم أمر يخشونه، وهو ما لا يكون إلّا من الشّجاع ذي الهمّة العالية، الذي لا تأخذه في الحقّ لومة لائم، ولا محاباة

١_ راجع: ترتيب المدارك ج ٧ ص ١٠٦؛ البيان ج ١ ص ٢٦٨.
٢_ انظر: أخبار بني حماد هؤلاء عند ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧.
٣_ المقدمة ج ١ ص ٣٦٥. وقد اخترنا تعريف ابن خلدون للإمامة لأنه أجمع وأمنع ما وقفنا عليه.

لأحد عنده؛ ومن إقامة لشرع الله ووقوف عند حدوده؛ ومن إحسان للتّدبير والسّياسة.

وهـذا الـشّرط الأخير لا يتأتّى للسّـلطان إلّا بإرشـاد فقيه حاذق، نزيـه النّفس صافي النّيّة، لأنّ الفقيه أعلم من غيره بقانون السّياسـة، وطريق التّوسّـط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشّهوات، فكان الفقيه معلّم السّلطان، ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لتنتظم باستقامتهم أمورهم في الدّنيا، ولعمري إنّه متعلّق أيضًا بالدّين، لكن لا بنفسه بل بواسطة الدّنيا، فإنّ الدّنيا مزرعة الآخرة، ولا يتمّ الدّين إلّا بالدّنيا. والمُلك والدّين توءمان، فالدّيـن أصل، والسّـلطان حـارس، وما لا أصل له فمهدوم، ومـا لا حارس له فضائع. ولا يتـمّ المُلـك والضّبط إلّا بالسّـلطان، وطريـق الضّبط في فصل الحكومـات بالفقه[1].

وكلّ هذه الشّروط ترجع إلى أصلين هما: حراسة الدّين وسياسة الدّنيا، فإن اجتمعت، فقد ولي المسـلمين أنسبهم للإمامة والحكم، وإن نقض بعضها أو كلّها، سامهم الخسف، وطالهـم الحيف، وعمل فيهم الاسـتبداد عمله. وكلّ هذا يـأتي بالاختيار والبيعة، فإجماع أغلـب المسـلمين على من يـلي أمرهم شرط لا يجوز خرقـه، وعلى القلّـة الانقياد لاختيار الجماعـة مـا دام السّـلطان قائمًا بـشروط الإمامة، ومتى ما سـقطت هذه الشّروط لسـبب شرعـيّ أو معقول، جاز للمسـلمين حينئذ خلعه، ثـمّ تقديم فريقين[2] مـن بينهم، فريق أهل الاختيار، ويشـترط فيهم العدالة والعلم والـرّأي والحكمة المؤدّيان لاختيار من هو للإمامـة أصلـح ولتدبير المصالح أعرف وأقوم؛ وفريق من أهـل الإمامة، وهم من تتوفّر فيهم شروط الإمامة شرعًا وعقلًا.

وعـلى المسـلمين عامّةً وعـلى المغاربة خاصّةً حتـى في عدم قدرتهم عـلى إقامة الإمامة

١ـ راجع: إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٧.

٢ـ راجع: الأحكام السـلطانية للماوردي ص ٤؛ الأحكام السـلطانية لأبي يعلى الفراء ص ١٩. والماوردي معاصـر لأبي عمران، ولا نسـتبعد أن يكون أبو عمران شـهد إحدى مجالسـه ببغـداد أو اطلع هناك على بعض أفكاره السياسية.

الشّرعيّة أن يتهيّؤوا ويستعدّوا، حتّى إذا ما ظهرت دولة تقيم الإمامة الشّرعية، نصروها، واتّبعوها، وأقاموا تحت لوائها الخافق شرع الله، وطهّروا البلاد ممّا اعتورها من بدع ومنكرات ووهن وتمزّق، ولا يجوز وقتها لعامّة النّاس -فبالأحرى لحملة الرّسالة المحمديّة من أهل العلم- أن يقفوا منها موقف التّقيّة، خوفًا من سلطان جائر، أو انتظارًا لتبدّل حال بحال، بل إنّ الواجب عليهم وقتها هو الانخراط في مشروعها بكلّ إمكانيّاتهم، والله محاسبٌ كلًّا على هوى نيّته، والله وليّ التوفيق. فلعلّ الله يخرج من تحت أيدينا من يعلي اللّواء، ويوحّد الكلمة، ويقيم العدل، ويمحو البدعة، ويجتثّ الشُّبه من أصولها، ويحيي رواء مغربنا المحتضر.

لم تكن تخلو مجالسي -وإن كان أساسها الفقه والحديث والأصول- من حديث عن مبادئ السّياسة وخططها، وأسس التّربية ومراحلها، ودور الفقيه في مجتمعه ورسالته السّامية، وذلك بقدر ما كنت أراه صالحًا ومفهومًا لأقلّ طلبتي فهمًا ووعيًا، على أنّي كنت أخصّ أسماهم مرقًى وأقواهم إدراكًا وأقدرهم على وعي المعاني، بحديث خاص لا يفهمه إلّا هو، لا محاباةً للّثاني على الأوّل، بل رفقًا بالأوّل وتكليفًا للثّاني بما يطيق حمله.

فالعلم مراتب، والمدارك مستويات، والتّسوية بين مختلفين ظلم لأحدهما، إن لم يكن لهما معًا، وكفى بالمرء إثمًا أن يحدّث بكلّ ما علم، وأن يكلّم النّاس بما لا يستطيعون له صبرًا. على أنّي أحرص مع كلّ هذه المحاذير على أن ألقنهم جميعًا المبادئ نفسها، وأزرع في نفوسهم الاستعداد نفسه لاستقبال البذرة حين ظهورها، وإحسان العناية بها، حتّى تنبت ويقوى عودها، وتتفتّق براعمها، وتثمر في بلادنا التي قد عمّها الجفاف.

فكان يقع فيهم منّي -بطريق المشيخة والصّحبة والاتّباع والتّعلّم، ومنهم في بعضهم عن طريق الأخوّة والتّعاون والاتّفاق على التّوجّه الأسمى والمرام الأمثل- ما يقوي أعضادهم، ويمنحهم الأمل في إشراق شمس التّغيير، ويكسبهم رزين العلم المعبِّد

لطريق الإصلاح، فيرجع جلّهم إلى بلاده بما تعلّمه وآمن به، حاملًا رسالته في قلبه وعقله ولسانه ويده، ليخرجوا أهليهم وعشائرهم وقبائلهم من ظلمات التّفرقة إلى نور الاتّحاد والتّآلف، ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[1]، وليربّوا جيلاً جديدًا من الفقهاء، وفي نفوسهم أنّ الله سيفتح على يدي أحدهم الفتح المبين.

إنّ أكبر جهاد في زماننا وبلادنا هو التّربية، تربية فقهاء مصلحين، لأجل ذلك حرصت ألّا ألقّن طلبتي الفقه فحسب، بل كيف يجب أن يكون الفقيه علمًا ودرايةً ومنهاجًا وسلوكًا، فالفقيه أمين أمّته وقائدها الحقيقيّ، وصوتها النّاطق بالحقّ، والمرافع عن قضاياها، والسّاهر على سلامها الدّاخليّ، والذّابّ عن عرضها إن انتهكه جائر، والمسؤول عن توجيهها حين إضاعتها السّبيل، والحريص على حمايتها من الزّيغ والتّعلّق بتوافه الأمور وسطحيّها، والمعالج لأسقامها إن أصابتها العلل، ومربّيها على منهاج النّبوّة العالي المنجي في الدّنيا والأخرى.

إنّ الفقيه هو من ينظر في بيئته ومجتمعه، فيرى ما النّاس غارقون فيه من آفات، وتخبّط، وجهل، وضلالة، وسوء تدبير وفهم، واعوجاج سلوك، وفساد خلق، وتهاون بالحدود، وما ينشأ بينهم من منازعات وغرامات وخصومات ومشكلات تنغّص معاشهم، فيتدخّل بمشرطه كالطّبيب الماهر ليصلح الفاسد، ويصحّح المعتلّ، ويُخلي مجرى حياتهم ممّا يعيق تدفّقها الطّبيعيّ. وليس الفقيه من يعظ الخلائق ويرعد ويزبد ويسجع فوق كرسيّ أو منبر مخوّفًا إيّاهم عذاب السّعير، أو مذكّرهم بحساب منكر ونكير، وما ينتظرهم من أهوال، فمن أنزل نفسه هذه المنزلة، فليس بفقيه، والأحرى عدّه من طائفة الوعّاظ[2]، الذين لا علم لهم بدقائق الحكم والاستنباط والفهم والتّبصر الخافي عن أكثر

١ــ سورة التوبة – الآية ١٢٢.

٢ــ وكانوا في الزمن الأول يسمون بالقُصَّاص، وكانت تعقد لهم مجالس بإذن الولاة بهدف الترويج لجهة أو طائفة أو مذهب ما أو النيل منها، أو لتحريك المشاعر، وهم يعتمدون في ذلك على كل ما يؤثر

النّـاس، والحـريّ بمن هذا حاله اسـتشعار صوتـه في تجييش العواطف واسـتنهاض الهمم والتّحريـض على العلم والعمـل والاجتهاد والكفاح والجهاد وسـدّ الثّغور ودفع مكائد الأعـداء والخائنين، لا في تخويف النّاس ممّا عند الله والسّـكوت مـراءً ومداهنةً ومصانعةً ونفاقًا عمّا يصيبهم من حاكم مفرِّط، أو وزير متسلّط، أو عامل متجاوِز.

وقـد قصدني بالقـيروان وأخذ عنّي الفقه والحديث والأصـول والفروع وما تبعها ممّا ذكرت طائفة كبيرة من الطّلبة والعلماء، أذكر منهم على سبيل الاستئناس لا الإحاطة:

الفقيه الفاضل الزّاهد أبا عبد الله محمد بن عباس الأنصاري الخواص[1]؛ والفقيه الحافظ العابـد الزّاهـد ذا الهمّة العالية والدّين المتين أبا بكر عتيق السّـوسيّ[2]؛ والأديب الشّـاعر العفيف الخيِّر، من خاصّة تلاميذي وممّن لازموني السّنين الطّوال حتّى إنّ أكثر شعره قاله فيّ عبد الله ابن رشـيق القرطبيّ[3]؛ والمجاهـد الزّاهد الصّالح واكّاگ بن زلّو اللّمطي[4]؛ والزّاهد الصالح المتقشّف عبد العزيز التّونسيّ[5]؛ وإمام جامع القيروان الأعظم، الرّجل الصّالـح والمتصـوّف الزّاهد والصّاحب المـلازم لي أبا بكر بن أبي طاعـة[6]؛ ومن خاصّة أصحـابي وأقيمهم بالمدونة وأبحثهم في أسرارهـا، الفقيه المفتي والزّاهد الفاضل عبد الله

في السـامع من قصص وعجائب وغرائب وسـير ومنقـولات ومختلقات وأحاديـث كانت موضوعةً أو صحيحـةً، فكانت مجالسـهم لذلك تعرف إقبالًا كبيـرًا من العامة. وكتب التـراث حافلة بقصص هؤلاء الوعاظ وأخبارهم.

١ـ توفي عام ٤٢٨هـ بالقيروان. راجع: ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٦٠.

٢ـ راجع: معالم الإيمان ج ٣ ص ١٨١؛ شجرة النور الزكية ج ١ ص ١٥٩.

٣ـ توفـي عـام ٤١٩هـ بمصر عن عمر يناهز الأربعين. راجع: التكملـة لكتاب الصلة ج ٢ ص ٢٣٩؛ الذيل والتكملة ج ٢ ص ٢٠٤.

٤ـ مـن فقهـاء السـوس وأوليائه، قـدم القيروان، وتفقه علـى أبي عمران، قبـل أن يعود إلى بلاده ويؤسـس مدرسـةً ما تزال قائمةً إلى اليوم سـماها مدرسة المرابطين، وهي التي ستخرّج عبد الله بن يس إمام دولة المرابطين، توفي قبل قيام دولة المرابطين، وضريحه بأكلو معروف مشهور.

٥ـ توفي بأغمات عام ٤٨٦هـ. راجع: التشوف ص ٩٢؛ الصلة ج ٢ ص ٥٤٩.

٦ـ توفي بتونس عام ٤٣٨هـ. راجع: ترتيب المدارك ج ٨ ص ١١٢؛ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٧٢.

بـن عبـد العزيز بن عزّون المغـربيّ[1]؛ والفقيه الحافظ أبا القاسـم السّـيوريّ[2]، تفقّه عليّ وأخذ عنّي الموطّأ[3]، وكان آيةً في الحفظ والدّرس والصّبر عليه؛ وحاتم بن محمد بن عبد الرّحمـن القرطبيّ المعـروف بابن الطّرابلسي[4]، سـمع عنّـي التّاريخ الكبـير للبخاريّ[5] وغيرِه، وكان راويةً لا يسـمع شـيئًا إلّا قيّده، وهو ممّن يحسنون الظّنّ بي ويذكروننـي بكلّ خـير في بـلاده[6]، جزاه الله خيرًا، وأحسـن إليه؛ والفقيـه الزّاهد المحـدّث المتقن أبا عبد الله ابـن منظـور الإشـبيليّ[7]، حدثته بكتـاب تَصْحِيف المحدّثـين للدّارقطنـيّ[8] وغيرِه؛ والعالم المتفنّن أبا الطّيّب عبد المنعم بن إبراهيم الكنديّ[9]؛ والفقيه النّبيل أبا القاسم عبد الرّحمن بن محرز القيروانيّ[10]؛ والعالم الأديب الزّاهد الورع أبا محمد ابن الرّيولّي[11]، أخذ عنّـي الحديث بالقيروان بعد عودتـه من الحجّ؛ والعالم النّبيه النّبيـل عبد الرّحمن بن محمد المعروف بابن الحشّاء[12]؛ والمحدّث الفاضل أبا عمر أحمد بن محمد بن يحيى ابن الحذّاء[13]،

١ـ توفي بالمهدية عام ٤٧٣هـ. راجع: ترتيب المدارك ج ٨ ص ١٠٨؛ تاريخ الإسلام ج ٣٢ ص ٨٨.

٢ـ توفي بالقيروان عام ٤٦٠هـ. راجع: ترتيب المدارك ج ٨ ص ٦٥.

٣ـ معجم السـفر للسـلفي ص ٣٨٥. وفيه أن أبا عمران يروي الموطّأ عن أبي محمد بن أبي زيد عن أبي بكر بن اللباد عن يحيى بن عمر الأندلسـي عن سـحنون بن سـعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسـم المصري عن مالك بن أنس.

٤ـ توفي عام ٤٦٩هـ. راجع: الصلة ج ١ ص ٢٥٣؛ الديباج المذهب ج ١ ص ٣٤٥.

٥ـ فهرسة ابن خير ص ١٧٤.

٦ـ وقد نقل لنا عياض بعض ما كان حاتم يذكر به أبا عمران. ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٦.

٧ـ توفي بإشبيلية عام ٤٦٤هـ. راجع: الصلة ج ٣ ص ٨٠٣؛ سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ٣٨٩.

٨ـ فهرسة ابن خير ص ١٧٣.

٩ـ توفي عام ٤٣٥هـ. راجع: ترتيب المدارك ج ٨ ص ٦٦؛ شجرة النور الزكية ج ١ ص ١٦٠.

١٠ـ توفي حوالي عام ٤٥٠هـ. راجع: ترتيب المدارك ج ٨ ص ٦٨؛ شجرة النور الزكية ج ١ ص ١٦٣.

١١ـ توفي عام ٤٥١هـ. راجع: سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ١١٥.

١٢ـ ولي القضاء بطليطلة وطرطوشة ودانية، توفي عام ٤٧٣هـ. راجع: الصلة ج ٢ ص ٥٠٢؛ ترتيب المدارك ج ٨ ص ٤٣؛ تاريخ الإسلام للذهبي ج ٣٢ ص ٥٦.

١٣ـ تولى القضاء بطليطلة ودانية، توفي عام ٤٦٧هـ. راجع: الصلة ج ١ ص ١١٠؛ سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ٣٤٤.

حدّثته بجميع تواليفي[1]؛ والمحدّث موسى بن خلف التّجيبي الوشقيّ[2]، سمع عنّي صحيح البخاري عام سبع وأربعمائة[3]؛ والفاضل الدّيِّن محمد بن إسماعيل المشهور بابن فورتش[4]، رحل مع أبيه إلى القيروان، وبها سمع عنّي عام عشر وأربعمائة؛ والأصولّي السيّاح في البلاد عبد الجليل بن أبي بكر الرّبعي القرويّ[5]، المعروف بالدّيباجي وبابن الصَّابوني، سمع عنّي الحديث؛ والمفتي طاهر بن هشام الأَزديّ[6]، أخذ عنّي الحديث أيضًا؛ والمتحقّق بعلوم الأدب واللّغة محمد بن عليّ التميميّ الغوثيّ القيروانيّ[7]، أخذ عنّي بدوره الحديث؛ ووضّاح بن محمد بن عبد الله الرّعينيّ السّرقسطيّ[8]، أخذ عنّي عام ثماني عشرة وأربعمائة؛ ومحمد بن نعمة الأسديّ العابر القيروانيّ[9]؛ وعمر بن عبيد الله بن زاهر الأندلسيّ البونيّ[10]، أخذ عنّي الحديث؛ والمقرئ الحافظ الثّقة عمر بن سهل بن مسعود اللّخميّ الطّليطليّ[11]، أخذ عنّي الحديث أيضًا؛ والمحدّث جميل الطّريقة المنقطع إلى الخير هشام بن سعيد الخير بن فتحون الوشقيّ[12]؛ وأبا عبد الله محمد السّلميّ

١_ فهرسة ابن خير ص ٣٩١.

٢_ قاضي وشقة في زمانه، توفي بعد ٤٤٥هـ. راجع: التكملة لكتاب الصلة ج ٢ ص ١٧٣.

٣_ السابق نفسه.

٤_ قاضي سرقسطة في زمانه، توفي عام ٤٥٣هـ. راجع: الصلة ج ٣ ص ٧٨٨؛ التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ٣٠٧؛ الذيل والتكملة ج ٤ ص ١٤٥.

٥_ لم أقف على عام وفاته. راجع: التكملة لكتاب الصلة ج ٣ ص ١٣٣؛ تاريخ الإسلام ج ٣١ ص ٣٤٧.

٦_ مفتي ألمرية في زمانه، توفي عام ٤٧٧هـ. راجع: الذيل والتكملة ج ٢ ص ١٤٥؛ سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ٥٨٢.

٧_ كان حيًّا عام ٤٦١هـ. راجع: الذيل والتكملة ج ٥ ص ٢٢٠؛ التكملة لكتاب الصلة ج ٢ ص ١٥٥.

٨_ لم أقف على سنة وفاته. راجع: الصلة ج ٣ ص ٩٢٩.

٩_ توفي بألمرية عام ٤٨٢هـ. راجع: الصلة ج ٣ ص ٨٧١.

١٠_ توفي بعد عام ٤٤٠هـ. راجع: الصلة ج ٢ ص ٥٨٠.

١١_ توفي بعد عام ٤٤٢هـ. الصلة ج ٢ ص ٥٨١.

١٢_ توفي بعد عام ٤٣٠هـ. الصلة ج ٣ ص ٩٣٥.

القيروانيّ[1]؛ والفقيه الصالح الدّيّن المتبتّل إبراهيم بن الحسن التّونسّي[2]؛ والزّاهد العابد الفاضل أبا محمد الفحصليّ[3]؛ والحافظ الفقيه الأديب المفتي أبا حفص عمر العموديّ[4]؛ والفقيه أبا سعيد القصّار القيروانّي[5]؛ وعمر بن صالح القيروانّي[6]، أخذ عنّي الأصول والفروع؛ والمحدّث الأديب ذا الفهم والذّكاء عيسى بن محمد بن عيسى الرّعينيّ[7]، أخذ عنّي الحديث، وحدّث به كثيرًا من النّاس ببلده؛ والمحدّث أبا القاسم خلف بن أحمد الجرّاوي الألميريّ[8]؛ ومن أهل يابسة أحمد ابن العجيفيّ العبدريّ[9]، أخذ عنّي الحديث. وغير هؤلاء[10] ممّن لا أحصي لهم عددًا من أهل فاس وسبتة والأندلس[11] والسّوس وبقيّة أقطار المغرب أدناه وقصيّه. فلم أكن أحدّث بحديث أو أشير بإشارة أو أتكلّم بشيء إلّا سارعوا بكتابته عنّي[12]، وفّقهم الله، ونفع بهم.

وإلى جانب من ذكرتهم من طلبة استجازني خلق كثير كأبي زاهر سعيد ابن أبي زاهر

١_ راجع: ترتيب المدارك ج ٨ ص ١١١.

٢_ توفي بعد عام ٤٣٧هـ. راجع: ترتيب المدارك ج ٨ ص ٥٨.

٣_ لم أقف على سنة وفاته. راجع: ترتيب المدارك ج ٨ ص ٦٦.

٤_ لم أقف على سنة وفاته. راجع: ترتيب المدارك ج ٨ ص ١١٠.

٥_ السابق نفسه.

٦_ توفي عام ٤٦٠هـ. راجع: الصلة ج ٢ ص ٥٨٩.

٧_ تولى القضاء بألمرية، ولد ٣٩٥هـ، وتوفي عام ٤٧٠هـ. راجع: الصلة ج ٢ ص ٦٣٤.

٨_ ولد عام ٣٩٥هـ، وتوفي عام ٤٧٥هـ. راجع: الصلة ج ١ ص ٢٧٢.

٩_ لم أقف على سنة وفاته، وسيرد خبر حادثة جرت له بالقيروان حمل إثرها إلى أبي عمران. راجع: الصلة ج ١ ص ١٢٠.

١٠_ اقتصرنا على من ذكرنا تجنّبًا للتّطويل، وإلّا فإن من وقفنا عليه من أسماء من تتلمذوا أو أخذوا أو التقوا بأبي عمران كثير. ويجب ألّا يغفل القارئ تراجم تلاميذ أبي عمران وأصحابه وصفاتهم، ليستدل بها على صفاته، وبالتلميذ والصّاحب يعرف الشّيخ.

١١_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٥.

١٢_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٥.

اللَّخْمِيّ السّرقسطيّ[1]؛ وأبي عبد الله أحمد ابن غلبون الخولانيّ[2]، وغيرهما. فالحمد لله الذي نفع بما علّمني عباده المؤمنين.

ولم أكن على كثرة ما يغشاني من طلبة مكتفيًا بما حصّلت، قانعًا بما اجتمع في صدري من علم، فكنت أغتنم كلّ فرصة للاستزادة والتّصحيح وأخذ ما غاب عنّي من مرويّات، مثل تلك التي أخذتها عن أحمد بن محمد بن سَعْدِي القيسيّ العامريّ الإشبيليّ[3] حين سكناه بالمهديّة وغيره.

على كثرة طلبتي وازدحام داري بهم وانقطاعي لتدريس العلم، لم أكن لأسمح لذلك بأن يحجبني عن النّاس، وما يعالجونه في معاشهم وشؤونهم اليوميّة، فأطلب الأخبار، وأستقصي أحوال المجتمع، وأجيب السّائلين مهما تضاءلت أسئلتهم، وأفتي المستفتين في كلّ طارئ ونازلة، لا اجتراءً على الفتوى، بل دفعًا لما قد يلحق النّاس عند الضّرورة من فتنة أو ضرر، إن تركت نوازلهم بلا جواب.

ومن أمثلة ذلك أنّ رجلًا بالقيروان –صار فيما بعد من طلبتي– قال أمام العامّة: «أنا خير البريّة»، فلُبِّبَ، وهمّت به العامّة، وحُمل إليّ لأنظر في أمره، فبادرت أوّلًا بتسكين العامّة مخافةً عليه من تهوّر متهوّر أو حماقة جاهل، ثمّ قلت للرّجل: «كيف قلت؟»، فأعاد عليّ ما قال.

فقلت له: «أأنت مؤمن»؟

قال: «نعم».

قلت: «تصوم وتصلّي وتفعل الخير»؟

١ــ لم أقف على سنة وفاته. راجع: التكملة لكتاب الصلة ج ٤ ص ١١٦؛ الذيل والتكملة ج ٢ ص ٤٢.

٢ــ توفي عام ٥٠٨هـ وعمره تسعون عامًا. انظر: سير أعلام النبلاء ج ١٩ ص ٢٩٧. ومن ذكر إجازته عياض في الغنية ص ١٠٦.

٣ــ توفي بعد عام ٤١٠هـ. راجع: الذيل والتكملة ج ١ ص ٥٩٤.

قال: «نعم».

قلت له: «اذهب بسلام».

ثـمّ التفتّ إلى العامّة، وقلت لهم: «قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾[1]. فانفض النّاس عن الرّجل، وتركوه[2].

وأكبر من ذلك حين جرت بالقيروان مسألة في الكفّار، هل يعرفون الله أم لا؟ ووقع فيها تنازع عظيم بين العلماء. وتجاوز ذلك إلى العامّة، وكثر التّمادي بينهم، حتّى كان يقوم بعضهم إلى بعض في الأسواق، ويخرجون عن حدّ الاعتدال إلى القتال. وكان المتهجّم بذلك رجل مؤدّب يركب حماره، ويذهب من واحد إلى آخر، فلا يترك متكلّمًا ولا فقيهًا إلّا سأله فيها وناظره. فقال قائل يومًا: «لو ذهبتم إلى الشّيخ أبي عمران، لشفانا من هذه المسألة». فقام إليّ أهل السّوق بجماعتهم حتّى أتوا باب داري، واستأذنوا عليّ، فأذنت لهم كما هو شأني دائمًا.

فقالوا: «أصلحك الله، أنت تعلم أنّ العامّة إذا حدثت بها حادثة، إنّما تفزع إلى علمائها، وهذه المسألة قد جرى فيها ما بلغك، وما لنا في الأسواق شغل إلّا الكلام فيها».

فقلت لهم: «إن أنصتّم وأحسنتم الاستماع، أجبتكم».

فقالوا: «ما نحبّ إلّا جوابًا واحدًا على قدر أفهامنا».

فقلت: «يكلّمني واحد منكم، ويسمع الباقون».

فلما رضوا بذلك، وانتخبوا من يتكلّم عنهم، قلت له: «أرأيتَ لو لقيتَ رجلًا، فقلتَ لـه: أتعـرف أبا عمـران الفاسي؟ فقال: أعرفـه، فقلتَ له: صفه لي، فقـال: هو رجل يبيع البقل والحنطة والزّيت في سوق ابن هشام، ويسكن صبرة، أكان يعرفني؟».

١ــ سورة البينة – الآية ٧.

٢ــ وردت عند ابن بشكوال في ترجمة أحمد بن العجيفي العبدري. انظر: الصلة ج ١ ص ١٢١.

قال: «لا».

قلـتُ: «فلو لقيتَ آخر، فقلتَ له: أتعرف الشـيخ أبا عمران؟ فقـال: نعم، فقلتَ له: صفـه لي، فقال: هو رجل يَدرُس العلم ويُدرّسـه، يفتي النّاس ويسـكن بقرب السّـماط، أكان يعرفني؟».

قال: «نعم».

قلتُ: «والأوّل ما كان يعرفني؟».

قال: «لا».

فقلتُ لهم: «كذلك الكافر، إذا قال لمعبوده صاحبة، وولد، وإنّه جسم، وقصد بعبادته مَـن هـذه صفته، فلم يعرف الله، ولم يصفه بصفاته، ولم يقصد بالعبادة إلّا مَن هذه صفته، وهـو بخـلاف المؤمن الذي يقـول إنّ معبوده: الله الأحد، الذي لم يلـد ولم يولد، ولم يكن لـه كفـؤًا أحد. فهذا قد عـرف الله، ووصف بصفته، وقصد بعبادته من يسـتحقّ الرّبوبيّة -سبحانه وتعالى- عمّا يقول الظّالمون علوًّا كبيرًا».

فقامت الجماعة، وقالوا لي: «جزاك الله خيرًا من عالم. فقد شفيت ما بنفوسنا»، ودعوا لي، ولم يخوضـوا في المسـألة بعد هذا المجلـس[1]. ولولا أنيّ أجبتهم الجـواب البينّ المُزيح للإشكال، لآل الأمر بهم إلى ما لا تحمد عقباه.

وكما أنّ الفقيه أمين أمّته، فإنّ المفتي هو مجتهد الأمّة المخبر بشرع الله تعالى، ويشترط فيه -إضافةً إلى معرفته التّامّة بأدلة الأحكام الشّرعيّة من الكتاب والسّـنّة والإجماع والقياس وما التحق بها على التّفصيل- أن يكون عالمًا بما يشترط في الأدلة ووجوه دلالتها، وبكيفيّة اقتبـاس الأحكام منها، والعلـم بأصول الفقه، والمعرفة بعلوم القـرآن، وعلوم الحديث،

١ـ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٢؛ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٩.

وعلم النّاسخ والمنسوخ، وعلميّ النّحو واللّغة، واختلاف العلماء واتّفاقهم بالقدر الذي يتمكّن به من الوفاء بشروط الأدلّة والاقتباس منها، مع الدُّربة والارتياض في استعمال ذلك، والعلم بالفقه، مع ضبط شامل لأمّهات مسائله وتفاريعه المفروغ من تمهيدها[1]. كلّ هذا مع بُعد الفهم، والرّفق بحال المستفتي، والصّبر عليه، والتّأنّي في التّفهّم منه. كما عليه أن يستحضر في فتاويه نفسيّة المستفتي، وحالته الاجتماعيّة، ومستوى فهمه للفتوى، والعرف الجاري به العمل في بلاده، ومجمل ظروفه، ليفتيه بما يرضي عنه ربّه وييسّر له معاشه.

وفي هذه المدّة أيضًا وجّه الموفّق[2] صاحب دانية، رسالةً إلى المعزّ صاحب القيروان مع قاضيه أبي عمر أحمد بن حسين[3]، فجرت له بالقيروان أخبار وأجوبة، ثمّ كتب بعد رجوعه إلى بلاده بمائة سؤال من فنون العلم مشفوعة بأبيات شعريّة وجّهها إلى المعزّ، فوجّهها المعزّ بدوره إليّ، فأجبت عنها بما علّمني الله[4].

بقدر ما مرّت السّنوات عليّ بالقيروان حثيثةً، بقدر ما كانت مزدحمةً حبلى بالعلم تعليمًا وتعلّمًا، فلم أجد وقتًا للتّفرّغ للتّأليف إلّا بقدر يسير، ولو أنّي أنفقت جهدي ووقتي فيه، لاجتمعت في داري أحمال من الكتب والمخطوطات. صحيح قول سقراط: «ما أثبتته الأقلام، لم تطمع في محوه الأيّام[5]»، لكنّ التّأليف يحتاج إلى استقرار النّفس وصفاء الذّهن وثبوت السّكنى، وأنا وإن كنت مستقرّ النّفس بمعرفة ربّي، صافي الذّهن، قادرًا على ضبط الأمور بفضل ما حباني الله به من مواهب وكفاية، فإنّي طالما كنت دائم التّقلّب والسّفر والسّياحة، وحتّى بعد أن سكنت القيروان، واستقررت بها، واختمر

١ــ أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح ص ٨٦.

٢ــ مجاهد العامري، أحد ملوك الطوائف، انتزى على حكم دانية والجزائر الشرقية، وحكمها في الفترة ما بين عام ٤٠٠هـ و٤٣٦هـ، وكان محبًّا للعلوم والآداب مشاركًا فيها. راجع: البيان ج ٣ ص ١٥٥.

٣ــ لم أقف على عام وفاته. راجع الهامش التالي.

٤ــ ترتيب المدارك ج ٨ ص ٤٣.

٥ــ درر الحكم للثعالبي ص ٥٤.

فكـري، وتعمّـق نظري، وتبـصّرت في أحوال البـلاد والعباد، فإنّي أدركـت أكثر من أيّ وقت سبق أنّ وطني وأمّتي أحوج إلى الفقيه والمعلّم والمربّي منها إلى المصنّف الموسوعيّ، كـما أيقنت أنّ الانكباب عـلى تربية جيل قادر على تغيير واقع مغربنـا الممزّق بين إمارات محدودة الرّؤية، وإصلاح ما خرّبه تهافت التّافهين على السّلطة والمُلك، أفيد وأنجع لأمّتي وبلادي من الاكتفاء بالتّنظير وتزجية جلّ الأوقات في تحبير أوراقٍ يعلم الله هل سـتصل إلى الأجيال النّاهضة أم ستضيع ولا يبقى منها إلّا عنوان هنا وآخر هناك. إنّ الكتابة اليوم ما يخطه الرّجال لا بأقلامهم، بل بسيوفهم ودمائهم.

***

إنّي اليـوم وبعـد زواجـي وضرب جـذوري في أرض القيروان الطيّبـة وقضائي لكلّ هذه السّـنوات فيها، ما زلت أجد في نفسي شـوقًا لمنشـأ أجدادي وأرض ميلادي فاس، بلدي وجنابي ومنبعي الطّيّب، ويشهد الله أنّي مغتمّ مهموم أشدّ الهمّ لما تعانيه هي وسائر جهات المغرب من ظلم وتسلّط وفساد، دائم الشّغل والتّفكّر في حالها طول نهاري وليلي درجة حُرمت معها الضّحك والمزاح[1]. وما كان يسـليّ عنّي ما أنا فيه إلاّ شـيئان: تفرّسي في بعـض الطّلبـة خصال المجاهدين المصلحين، وحنيني الجـارف لبيت الله الحرام ومقام الرّسـول الكريم. ولئن حجزني عن فاس ما حجزني، فإنّ مسـلك الحرم معبّد أمامي، لا يفصلني عنه إلّا العزم والاسـتعداد، وقد عزمت بإذن الله، واسـتعددت للخروج عامي هذا إلى الحجاز لحجّ بيت الله تعالى[2].

خرجـت نحـو المشرق سـالكًا طريقًا طرقتها روحـي خلال السّـنوات الماضية مرّات ومـرّات، ومـا إن وصلـت مكّة وقبل أن أسـتقرّ بهـا، حتّى وافتنـي أخبار الوبـاء النّازل بإفريقيّـة، وما أحدثه من فنـاء ومجاعة، وما وقع النّاس فيه من ضيق وحرج في عيشـهم، فابتهلت إلى الله أن يكشف ما نزل من الضّرّ، ويخفّف المحنة عن عباده الضّعفاء.

في مكّـة وجـدت روحي حراءهـا، وانشرح قلبي لـدفء المكان والزّمان القدسـيّين، وهتفـت الرّوح معظّمةً باريها، حينها أيقنتُ أنّ الحرم لن يعتق روحي حتّى تجاوره حُجّةً أو اثنتـين، لكـنّ ما حصـل أنّي جاورت ثلاث سـنين بتمامهـا، قضيت جلّهـا في العبادة،

---

١ ـ قيـل فـي وصـف أبي عمـران إنه كان قليل الضحـك ما رؤي ضاحكًا قـط إلا مرةً واحـدةً. راجع: معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٠.

٢ ـ توجـه أبو عمران قاصدًا المشـرق عام ٤٢٥ هـ حسـب رواية ابن عذاري، فيمـا أرخ الدباغ خروجه بعام ٤٢٦ هـ. وكلا المصدريـن يتفقان أن رجوعه إلـى القيروان كان قبل وفاته بيسـير. انظر: البيان ج ١ ص ٢٧٥؛ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٣.

والتّطهّر، وتخلية النّفس، وإصاخة السّمع لحديث الفؤاد، ومناجاة الأرواح المحلّقة فوق البيت العتيق، والتّفكّر في أسرار الخلق وحقيقة الدّنيا والإنسان وتكالبها عليه ولهاثه خلف ركامها الحقير غافلًا عن أنّ سبب خلقه وعلّة وجوده عمارتها لا مُلكها.

ما إن مرّت السّنوات الثّلاث بحلاوتها وطهرها ونورها الوهّاج، حتّى ألقي في روحي أمر ربّها بالانصراف إلى القيروان، فامتثلت للأمر، ورجعت لمواصلة رسالتي وتكليفي بتدريس العلم ومدارسته، منبلج الوجه، مسرور القلب، جذلان النّفس، عميق اليقين ولسان ضميري يردّد: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، اليوم وغدًا وإلى أن تقبض روحي.

رجعت في القيروان لما كنت عليه قبل خروجي إلى الحجّ، وكان النّاس في غاية الشّوق لرؤيتي، والطّلبة في غاية التّوق لسماع ما عندي، فرأيت التّعجيل بالجلوس للدّرس وإنعاش الأفئدة بالعلم، وسرعان ما غصّ مجلسي بالعلم، وقصده القاصدون، وعمّره الله، وعمّه ببركته.

في إحدى الأيّام وأنا ألقي الدّرس -وكانت العادة أن يحضر مجالسي الطّلبة وسواهم من النّاس- شدّ انتباهي بين الحضور شيخ ملثّم تلوح عليه مخايل الرّياسة في طائفة من أصحابه، فقلت في نفسي لعلّه أحد الحجّاج الرّاجعين إلى بلادهم، وكان الحجّاج يمرّون على القيروان في طريقهم إلى الحجّ ذهابًا وإيابًا، فيحضرون مجالسي، ويسمعون فيها من العلم ما شاء الله لهم سماعه، ونادرًا ما كانت عيني تطرق أحد أهل اللّثام هؤلاء لتنائي منازلهم بالصّحراء، فاستبشرت خيرًا بحضوره، وقلت في نفسي: لعلّه يحمل معه فائدةً من مجلسي هذا يبلّغها قومه. ومع تردّده على المجلس في الأيّام التّالية أحببت أن أعرف خبره، وبعد السّؤال وصلني أنّه من شيوخ صنهاجة اللّثام، فعزمت على محادثته ومعرفة ما وراءه قبل أن يرتحل إلى بلاده.

١_ سورة الأنعام - الآيتان ١٦٢-١٦٣.

بعد انفضاض أحد المجالس -وكان حاضرًا فيه- أمرت أحد طلبتي -وكان صنهاجيّ المنشأ- أن يدعوه إليّ، فجاءني الشّيخ[1]، وجلس بين يديّ، وكشف عن وجهه، فإذا بشيخ وضيء المحيّا سمح الطّلعة، فوقع في خاطري موقعًا حسنًا، وقلت في نفسي: إن يكن من خير في أهل اللّثام، فلن يخلو منه هذا الشّيخ. ثمّ استخبرته عن بلده ونسبه ومنزلته من قومه، ولم يكن يفهم من الدّارجة والعربية إلّا كلمات معدودات، ولم أكن بدوري أفهم من لسان صنهاجة اللّثام غير كلمات قليلات، لمباينة لسانهم لألسنة غيرهم من أمازيغ المغرب، فلم أجد بدًّا من الاستعانة بترجمان يفصح عن مرادَيْنا، ولم أكن لأعدم من بين طلبتي من يقدر على إيصال معنيينا بسلاسة وفصاحة، فصار أحد النجباء بيننا واسطةً، فاستفسرته[2] عبره:

- انتبهت لمواظبتك على حضور مجلسي منذ أيّام، ورأيت جميل انصاتك وانتباهك وتركيزك فيما كنت أقول، فكيف وأنت لا تفقه من العربيّة غير كلمات؟

- والله يا سيّدنا ما ذاك إلّا شوقًا إلى سماع ما عندك والتّبرّك بك وبما تلقيه إلى أصحابك من كلام ربّهم وحديث رسولهم الكريم، ووالله لَلجلوس إليك -وأنت من طرقت أخبار علمك كلّ أذن- وسماع حديثك أحبّ إليّ في ساعتي هذه من الاجتماع بأهلي وبَنِيّ الذين لم أرهم منذ أكثر من عام. ولكنّي مع ذلك استعنت ببعض أصحابنا ممّن يفقه شيئًا من

١ـ اختلف في تاريخ التقاء يحيى بن إبراهيم الجدالي بأبي عمران على أقوال هي:
- ٤٤٠هـ (البيان ج ٤ ص ٧؛ الحلل الموشية ص ١٩؛ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٢؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩).
- ٤٤٥هـ (في موضع آخر من البيان ج ٣ ص ٢٤٢).
- ٤٤٨هـ (ابن الأثير ج ٨ ص ٣٢٨).
- ما بين ٤٤٠هـ و٤٥٠هـ (نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٥٣).
وكلها تواريخ تشكل على ما ثبت في تاريخ موت أبي عمران، هذا مع ما يشوب الروايات التي ساقها بعض هؤلاء من اضطراب واضح. والصحيح أن اللقاء حصل بينهما ما بين عامي ٤٢٨هـ و٤٣٠هـ حسب ما أورد ابن أبي زرع في روض القرطاس ص ١٢٢.

٢ـ في شأن ما جرى بين أبي عمران وإبراهيم بن يحيى انظر وقارن: البكري ج ٢ ص ٣٥٢؛ البيان ج ٤ ص ٧؛ روض القرطاس ص ١٢٢؛ الحلل الموشية ص ١٩؛ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٣؛ ابن الأثير ج ٨ ص ٣٢٨؛ نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٥٣؛ بيوتات فاس ص ٤٥.

العربيّة، فكان يجمل لنا ما تقوله إجمالًا يتّفق مع استيعابه.

– بارك الله فيك من شيخ، فمن أنت؟ وما نسبك؟ ومن قومك؟ ومن أيّ البلاد جئت؟

– إنّي يا سيّدنا شيخ صنهاجة، يحيى بن إبراهيم الكدالي، وبلادنا بلاد كبيرة لا حدّ لها إلّا البحر المحيط من جهة الغرب، وبلاد السّودان جنوبًا، وهؤلاء بيننا وبينهم حروب، وأمّا قومي، فلا يحصي عددهم إلّا الله.

– وأيّ المذاهب تنتحلون؟

– والله ما لنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب، فنحن كما قد علمت في الصّحراء منقطعون، لا يصلنا إلّا التّجار، وهؤلاء أغلبهم جهّال، حرفتهم البيع والشّراء، ولا علم عندهم يبلّغوه إلينا.

– فاحمل معك إذن من يعلّم قومك عقائد ملّتهم وكمال دينهم.

– وأين لي بواحد مثله يا سيّدنا؟! فإن رأيت، انتخبت لنا من بين طلبتك من يخرج معنا إلى بلادنا، يعلّمنا ديننا بعد اندراس رسمه، واضمحلال جلّه، وتشابه الحلال بالحرام فيه، وإنّي أضمن لك أنّ فينا أقوامًا كثيرين يحرصون على تعلّم العلوم والتّفقّه في دين الله، إن وجدوا من يسلك بهم إلى ذلك.

– الرّأي ما رأيتَ، سأسعى لك في ذلك، ولكن امكث عندنا يومًا آخر أو اثنين، وسأتحفك بما يرضي خاطرك إن شاء الله.

وافقت نيّتي نيّة الصّنهاجيّ في إرسال من يعلّمه وقومه أمور دينهم، فلا يجوز ترك هؤلاء القوم على ما هم فيه من جهالة وعميّة، وأسفت لما وجدت عليه الرّجل من جهل حتّى بالفرائض وقصير سور القرآن بعد أن اختبرت معرفته بالدّين، وقلت والأسف يعتصرني: إن كان هذا حال شيخ صنهاجة وأحرصهم على الدّين، فكيف هو حال عامّة

أهـل بـلاده؟! إلّا أن هـدي الرّجل أعجبنـي، وذقت في كلامـه الصّدق والنّيّة السّـليمة والحـرص عـلى التّفقّـه في الدّين وحبّ الخير، ولـو أنّ هـذا الإصرار والصّدق والحرص اجتمعوا مع العلم والفقه، لانتفع المغرب والإسـلام بهذا القبيل الكبير المجتهد من أبنائه خـير انتفاع، ولخرج منهم من يرفع راية التّوحيد عاليًا، خاصّة لما لهؤلاء الصّنهاجيّين من الشّـدّة والجلـد والثّبات والبسـالة والجرأة وإيثـار الموت على الانهـزام في الحروب ما هو مشـهور لا يُضاهى[1]، فإن هُدوا إلى الحقّ واسـتُعملوا فيما يعلي شأن الدّين ويضمّ شتات المغرب، لصاروا خير عصبيّة لأجلّ رسالة.

اسـتقرّت نيّتـي بعـد تفكّر وإعمال نظـر على رأي، عـلى أنّي أردت قبـل أن ألقي به إلى الصّنهاجـيّ أن أنتخـب مـن طلبتـي طائفـةً، وأندب من شـاء منهم للخـروج معه، لعلّ أحدهم يخالف فراستي فيه، ويفاجئني بشجاعة لم أخمّنها فيه، لكنّهم -كما توقّعت- تلكّؤا واعتذروا لأجل مشقّة السّفر البعيد والانقطاع في الصّحراء، فمن يفرّط في هواء القيروان العليل، وفواكهها اللّذيذة، وعيشـها الهيّن في سبيل خوض صحراء مغبرة مقفرة ولأجل تعليم قوم يغلب عليهم الجفاء والقسوة والصّدود. وفي الغد استدعيت الصنهاجيّ لأدلي له بالرّأي السّديد إن شاء الله:

- إنّه ليس في هذه البلاد من يصلح لمرافقتك، فأنت تحتاج إلى فقيه قويّ النّفس، جلد، ذي تمرّس وخشـونة وصبر ودراية بوعورة بلادك وطبائـع أهلها، وإنّ لي صاحبًا في بلاد النّفيس من أرض المصامدة، فقيه حاذق ورع تقيّ، اسمه وكاك بن زلّو اللّمطي، فاخرج إليه، وادفع له بكتابي هذا، وأخبره بما جرى بيني وبينك، وسيسعفك برجلك المنشود إن شـاء الله. فلعلّ الله يقيّض للمغرب على يدي قومك من يقمع الطّغاة وأصحاب الأهواء وحبّ السّلطان، ويسدّ بهم الثّغور ويوحّد الكلمة ويجتثّ الشّبه والبدع.

١ـ ابن حوقل ج ١ ص ١٠١؛ البكري ج ٢ ص ٣٥٣.

ثمّ دفعت إلى الصّنهاجي كتابًا منّي إلى وكاك نصّه:

(السّلام عليكم ورحمة الله، أما بعد: إذا وصلك حامل كتابي هذا، وهو يحيى بن إبراهيم الكـدالي، فابعث معـه إلى بلاده من طلبتك من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسـته، ليعلّمهم القرآن وشرائع الإسـلام ويفقّههم في دينهم، وله ولك في ذلك الثّواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، والسّلام)[1].

ما إن اسـتلم الشّـيخ الصّنهاجيّ الكتاب حتى شكرني، وخرج من فوره تلقاء المغرب وغايـة همّه أن يصل به إلى حيث أرشـدته. وقـد بقيت بعد خـروج الصّنهاجي وانطلاقه إلى المغـرب مـدّةً مترقّبًا ما قد يصلني عنه من أخبار، غير أنّ الأيّام لم تسـعفني حتّى أعلم مـا صنـع الله به، إذ سرعان مـا عاجلني المرض، وأقعدني عن الخـروج، فأيقنت أنّ وقت الرّحيل أزف، ورسل المنايا أقبلت.

***

١ـ الأنيس المطرب ص ١٢٣.

اليـوم، وقد تضاعفت عقود عمري، ووهن عظمي، واشـتعل رأسي شـيبًا، وأخذت الأيّـام من جسـمي، ولم يبـقَ لي في الحياة إلّا مرحلة أخـيرة أجتازها، ها أنـا ذا أجدني قد صرت في معارك المنايا بعد أن كنت في معارك البرايا، أشـارف طلاع الرّحيل، واقفًا على ثنايـا الوداع أنتظر رسـل ربّي، وقد جاء العُوّاد لعيادتي، وبكـت الخليلة لفراقي، وصرت مندوبًا لإلقاء آخر كلماتي:

– يـا أهلي، يـا أحبّتي ومعشري، إنّي راحـل، فلا تجزعوا على فراقـي، ولا تأتوا منكرًا يلحقني بسببه تضييق أو حرمان، وأنّي أشهد الله أنّي بريء ممّا تبرّأ منه رسوله. وإنّي مذكّركم بوصيّـة المصطفى الكريم، فاسـمعوا، واعملوا، فإنّه لا يبقى إلّا العمل: {اسْـتَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، فَإِنَّهُ مَا ذَكَرُهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ اللهُ، وَلَا ذَكَرُهُ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ[1]}. ولا تجزعوا لموتي، فالموت يعتق الإنسان من الحياة التي تسلب روحه وتلطّخها بأدرانها، ومهما طال مكثي فيها، فأنا راحل إلى سيّدي حبيبي، ألم أحدّثكم ببشرى الحبيب المصطفـى مخبرًا عـن ربّنا: {مَنْ أَحَـبَّ لِقَاءَ الله، أَحَـبَّ اللهُ لِقَاءَهُ[2]}؟! وأنا مشـتاق للقيا ربّي، وأملي في وجهه الكريم أعظم من أن أصفه لإنسان. والله يعلم أنّي لم آنس بلحظة في الدّنيـا إلّا لحظـةً كنت فيها بين يديه في موطن مناجـاة أو دعاء أو عبادة أو خيريّة أو إعمار للنّفـوس بالعلم الصّالح، وأنّي كنت كلّما شـككت في اسـتحلائي الدّنيـا وأمني غدرها، ألوم نفسي وأتّهمها وأجزع إلى الله طالبًا حرزه بألّا يجعل لها في قلبي نصيبًا، وألّا يسـلّطها عـليّ كما سـلّطها عـلى كثيرين، وأن يخرجنـي منها كما أدخلنيهـا، بريئًا كوليد لم يبلغ سـنّ

١ـ رواه بلفظه الطبراني في معجمه الأوسـط [رقم ٨٥٦٠] من حديث أبي هريرة بإسـناد حسن ورواه غيره. راجع: صحيح الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٠٣.

٢ـ متفق عليه، من حديث طويل.

التّمييـز. إنّي راحـل يـا صاحبتـي، إنّي راحل يا بَنـيّ[1]، إنيّ راحل يا معشري وعشـيرتي، عصمكم الله وحفظكم وأعانكم على أنفسـكم، بادروا إلى التّوبة والصّلاح ونفع العباد، وكونـوا كـما كان أبوكم، قائمين بالحقّ شـهداء به ولو على أنفسـكم، وإنّ لي وصيّةً أخيرةً تحـت رأسي، فأمضوها، أمضى الله إليكـم رحمته. ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[2]، ﴿... فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]، أشهد أنّ لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله.

***

١_ خلف ولدًا اسمه عيسى وابنةً. معجم السفر للسلفي ص ٢١٤؛ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٣.
٢_ سورة فاطر- الآيتان ٣٤-٣٥.
٣_ سورة يوسف - الآية ١٠١.

وفاته

توفّي الفقيه المشارك المربّي المصلح الملهم لأجيال من الفقهاء، الحامل لِهمِّ وطنه وأمته دون أن تتاح له فرصة رؤية المغرب الموحّد، المغرب القويّ، المغرب المؤثّر، المغرب المجاهد المرابط، المغرب الحامل للواء الإسلام، المغرب الذي طالما أراده وعمل لأجله، لكنّ ذكراه بقيت حيّةً، وأثره بقي شاهدًا على شخصيّة مغربيّة فذّة، وبذرته نمت، وأزهرت دولةً قويّةً ضربت جذورها في عمق الصّحراء الكبرى، وأرخت بظلالها على الأندلس.

توفّي أبو عمران في اليوم الثّالث عشر من شهر رمضان المبارك[1] من عام ٤٣٠هـ (الموافق ٨ من يونيو ١٠٣٩م) وآخر ما أجرى الله على لسانه شهادة واثقة ببراءته من المعاصي قالها لامرأته الباكية عند رجليه: (... أما والله إنّي ما مشيت بهما إلى معصية قطّ[2]). وبعد موته فتحت وصيّته التي سمّى فيها من سيغسله ويكفّنه ويصليّ عليه، ولم يكن إلّا العالم العابد الزّاهد عتيق السّوسي أحد خاصّة أصحابه، وحُمل نعشه إلى المسجد حيث صلّى عليه السّلطان وحاشيته وأهل القيروان كافّةً، ثمّ حُمل النّعش ليطاف به في المدينة في موكب مهيب سار فيه السّلطان بموكبه؛ وظهر من حبّ أهل القيروان لفقيههم وتعلّقهم به وشديد حزنهم على فراقه أنّهم كسروا تحته نعشين وهو على رؤوسهم، قبل أن يعاد إلى داره حيث دفن، وتحوّل قبره إلى مزار معروف يتبرّك النّاس به[3].

---

١ _ التشوف ص ٨٧؛ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٣؛ طبقات الشيرازي ص ١٦١؛ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٥٢؛ البيان ج ١ ص ٢٧٥؛ روض القرطاس ص ١٢٢؛ الديباج المذهب ج ٢ ص ٣٣٨؛ معرفة القراء الكبار ج ٢ ص ٧٣٨؛ وفيات ابن قنفذ ص ٢٣٩؛ غاية النهاية ج ٢ ص ٢٨١؛ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠؛ شذرات الذهب ج ٥ ص ١٥٣.

٢ _ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٣.

٣ _ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٣.

مؤلّفاته

لا نعرف عدد ما خلّفه أبو عمران من تراث مكتوب غير سبعة مصنفات، واحد منها محقّق، وهو كتاب النّظائر[1]. وثلاثة منها ذكرت عرضًا في ترجمته، هي اليوم في حكم الضائع أو المفقود، وهي:

أوّلًا: فهرسته ورواياته، ولو وصلتنا هذه الفهرسة، لكانت ذات أهميّة كبرى في تسليط الضّوء أكثر على حياة الرّجل ونشاطه العلميّ، وقد اعتبر أحد الباحثين هذه الفهرسة المفقودة علامةً لبداية هذا النوع من التّصانيف بالمغرب[2]، رغم أنّنا لا نعلم عنها إلاّ اسمها حين ذكرها عياض في الغنيّة[3]. والفهارس هي نوع من التّصانيف يلجأ إليه العالم حين يأنس في نفسه درجةً وسبقًا في العلم، لتسجيل شهادة يحدّد بها مستواه، ويعيّن ما حصل عليه من علم، ويذكر من أخذ عنهم من شيوخ مع ذكر أحوالهم وذكرياته معهم، وتسجيل ما أخذه عنهم من كتب ومصنفات ومرويات مع إسناد ذلك برجال ثقات[4].

ثانيًا: كتاب التّعاليق على المدونة، وهو كتاب جليل لم يكمل كما صرح ابن فرحون[5]، وقد أورد عياض جملةً من تلك التّعاليق في مواضع عدة من ترتيبه ذكر أنّه وجدها بخطّ صاحبها[6]، كما نقل عنه البرزلي والونشريسّي في أكثر من محلّ.

١ـ النظائر لأبي عمران الفاسي، تحقيق عبد الحق حميتي، إشراف محمد الروكي، رسالة دبلوم الدراسات العليا (الماجستير) مقرونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بظهر المهراز – فاس ١٩٩٦م. انظر أيضًا: أبو عمران الفاسي حافظ المذهب المالكي ص ٢٩٧.

٢ـ فهارس علماء المغرب ص ١١٣.

٣ـ الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض) ص ٢٢٨.

٤ـ فهارس علماء المغرب ص ٦.

٥ـ الديباج المذهب ج ٢ ص ٣٣٧.

٦ـ ترتيب المدارك ج ١ ص ٢٩.

ثالثًا: عوالي حديثه، وهي -حسب ما ذكره عياض[1] عن حاتم بن محمد- تدوين من مائة ورقة، جمع فيه أبو عمران مروياته العالية الإسناد.

وثلاثة أخرى ما تزال في صيغتها المخطوطة، وهي:

أوّلًا: كتاب الأحكام، وهو مخطوط بخزانة بن يوسف بمراكش تحت رقم (٥٤٧)، وقد نقل منه البرزلي[2] وذكر نسبته لأبي عمران، كما نقل منه عبد الهادي حميتّو مسألةً تعليميةً أجاب عنها أبو عمران[3].

ثانيًا: كتاب الدّلائل والأضداد، وقد سمّاه الونشريسيّ بنسبته لأبي عمران ونقل منه[4]، وهو مخطوط بجامع المواسين بمراكش حسب ما أورد أحد الباحثين[5].

ثالثًا: اختصار من مسائل النّوازل، وقد وصلنا هذا المختصر منسوبًا لأبي عمران في نسخة خطيّة بخزانة مؤسسة علال الفاسي بالرباط برقم (ع٧٣٦) ضمن مجموع من الصفحات في (٢٤٠) صفحة، وعنه نقل بعض أصحاب كتب النّوازل[6]. وقد رجّح أحد الباحثين أن يكون هذا الاختصار هو نفسه كتاب الأحكام، مع حكمه بعدم صحّة نسبتها لأبي عمران[7]، وأيًّا ما يكون، فإنّ الموضوع يحتاج إلى تتبّع وبحث دقيقين.

وللقارئ أن يستغرب كيف أنّ عالمًا بموسوعية أبي عمران ورسوخه وتعدّد مشاربه وغزارة تحصيله لم يخلّف إلّا هذا النّزر القليل من المؤلفات. ولعلّ السبب في ذلك هو أنّ

١_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٦.
٢_ فتاوى البرزلي ج ٦ ص ٨٨.
٣_ انظر: أبو عمران الفاسي (حافظ المذهب المالكي) ص ٥٤.
٤_ المعيار ج ١٠ ص ١٤٤.
٥_ راجع: أبو عمران الفاسي (حافظ المذهب المالكي) ص ١٢٦.
٦_ مواهب الجليل ج ١ ص ١٢٢، ج ٥ ص ٢٨٨.
٧_ السابق نفسه ص ١٢٤.

الرّجـل لم يكن في غمرة انشـغاله يجد سـعةً من الوقت للعكوف عـلى الكتابة والانكباب على التّأليف بعد أن حصلت له رياسـة العلم بالقيروان، وجلس للفتيا والتّدريس وتربية أجيال من الفقهاء انتشروا في كلّ جهات المغرب فيما يكاد يشبه شبكةً من الفقهاء مرتبطةً به بشـكل أو بآخر، وصار له مجلس تشـدّ إليه الرّحال من الآفاق. ولا يخفى على مجرّب ما يحتـاج إليـه هذا العمل من وقت وجهد كبيرين. ولربّما كانت لأبي عمران فلسـفة خاصّة في هذا الشّـأن، آثر معها التّركيز على التّدريـس والتّعليم والتّربية لما رآه من تزاحم الطّلبة عليه، فترك كثرة التّأليف أو بقي يؤجّله دون أن يسـعفه العمر للتّفرغ له، أو ربّما بسـبب الهـمّ الإصلاحيّ الـذي حمله، أو لكلّ هذه الأسـباب مجتمعة. وأيًّا ما يكـون، فإنّ مقدار العلـم الـذي تركـه أبو عمران على شـكل منقولات وأجوبة عن مسـائل وفتـاوى دوّنها تلاميـذه وطلبة العلم الذين رحلوا إليه من كلّ البلاد وطاروا بها للمشرق والمغرب كبير ومؤثـر في أجيـال من العلماء، خاصةً أنّ الرّجل لم يكـن يتكلّم بشيء إلّا كُتب عنه[1]، وما تزال كتب النّوازل والفتاوى تحتفظ لنا برصيد مهمّ من ذاك التّراث الغنيّ.

من شعره

حيّاك ربّـك من خـلٍّ أخـي ثقة ... وصان نفسك بالتّكريم مولاها

من كـلّ غـمٍّ وشـأن لا يوافقها ... هـو العليم بـما يبديه مولاها

ولا أضـاع لها الـرّحمـن حرقتها ... وقـولهـا: إن تَـسِرْ ودّعـتـك اللهَ

فـالله يجمعنا مـن بعد أوبتنا ... ويؤتنا من وجوه البرّ أسناها[2]

١ـ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٠.

٢ـ قالهـا جوابًـا على أبيات كتبها محمد بن علي الطُّبني إليه حين عزم على السّـفر إلى الحج. راجع: ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٥١؛ أنموذج الزمان في شعراء القيروان ص ٤٠٢.

نماذج من فتاويه[١]

■ أحكام الجماعة الذين تمتدّ إليهم الأمور عند عدم السّلطان، نافذ منها كلّ ما جرى على الصّواب والسّداد في كلّ ما يجوز فيه حكم السّلطان، وكذلك كلّ ما حكم فيه عمّال المنازل من الصّواب ينفذ[٢].

■ الغاصب ظالم غير محسن، ومن ظلم فواجب أن يُحمل عليه[٣].

■ جماعة العدول تقوم مقام الإمام في المحارب وفي القصاص، إنّما ذلك حيث يتعذّر تناول السّلطان[٤].

■ قال في فتنة صقليّة: من ادّعى الحرّيّة، فالقول قوله[٥].

■ أفتى جماعةً مشوا معه للحجّ فطلب منهم أعرابيّ على كلّ جمل ثمن درهم بأن يرجعوا، فرجعوا[٦].

■ فيمن باع حرًّا ماذا يجب عليه؟ قال: يحدّ ألف جلدة، ويسجن سنةً، فإذا أيس منه وَدَى ديّته إلى أهله[٧].

■ الدّعاء للخلفاء والسّلاطين بدعة غير محبوبة في الخطب[٨].

١_ تحفل كتب الفقه والفتاوى والنوازل بفتاوى أبي عمران، نذكر على سبيل الاستئناس: مذاهب الحكام لعياض، فتاوى البرزلي، معيار الونشريسي، ذخيرة القرافي، مواهب الرعيني. وقد قام أحد الباحثين بجمع طائفة من فتاويه وتخريجها والتقديم لها. انظر: فقه النوازل على المذهب المالكي (فتاوى الإمام أبي عمران الفاسي) محمد البركة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، طبعة ٢٠١٠. وانظر أيضًا: أبو عمران الفاسي حافظ المذهب المالكي، خاصةً القسم الثاني والملحقين الرابع والخامس.

٢_ المعيار ج ١٠ ص ١٠٣.

٣_ فتاوى البرزلي ج ٥ ص ١١٣.

٤_ مواهب الجليل ج ٤ ص ١٩٩.

٥_ فتاوى البرزلي ج ٥ ص ١٩٩.

٦_ مواهب الجليل ج ٢ ص ٤٩٦.

٧_ مواهب الجليل ج ٥ ص ٢٨٨.

٨_ راجع: نوازل أبي عمران ص ١٠١.

شخصيّة فذّة

يعـدّ أبـو عمران من الشّـخصيّات العلميّة البارزة لا في تاريخ فـاس أو المغرب فقط، بل في تاريخ الغرب الإسـلاميّ كلّه، فقد كان كما شـهد له كلّ من ترجم له[1] مشـهورًا[2] بوصفـه حافظًـا[3] علاّمـةً[4]، معلّـما[5]، إمامًا كبـيًرا[6]، من كبـار العلماء[7]، بـل من أيمّة المسـلمين[8]، فقيـه أهـل القيروان في وقتـه[9]، كبـيًرا عندهـم[10]، إليه انتهت بها رئاسـة العلـم[11]، مقدّمًا في الفضـل والإمامة[12]، مقطوعًا بفضله وإمامتـه[13]، مكثرًا عالمًا[14]،

١ـ نجد ترجمته في: الإكمال لابن ماكولا ج ٧ ص ٦٣-١٤٦؛ طبقات الشيرازي ص ١٦١؛ عيون الإمامة ونواظر السياسة ص ١٦٨؛ جذوة المقتبس للحميدي ص ٤٩٧؛ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٣؛ الصلة لابـن بشـكوال ج ٣ ص ٨٨١؛ بغيـة الملتمس للضبي ج ٢ ص ٦٠٦؛ التشـوف ص ٨٧؛ معجم البلدان ج ٤ ص ٢٣١؛ معالـم الإيمـان ج ٣ ص ١٥٩؛ سـير أعلام النبـلاء ج ١٧ ص ٥٤٥؛ تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١٠٩٧؛ معرفة القراء الكبار ج ٢ ص ٧٣٧؛ تاريخ الإسلام ج ٢٩ ص ٢٩٩؛ الوفيات لابن قنفذ ص ٢٣٩؛ الروض المعطار ص ٤٣٥؛ الديباج المذهب ج ٢ ص ٣٣٧؛ غاية النهاية لابن الجزري ج ٢ ص ٢٨٠؛ تبصير المنتبه لابن حجر ج ٤ ص ١٤١٠؛ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠؛ شذرات الذهب ج ٥ ص ١٥٣؛ شجرة النور الزكية ج ١ ص ١٥٨ وغيرها. وأوسع ترجمة هي التي ساقها القاضي عياض، وتليها ترجمـة الدبـاغ. علـى أنه على الباحث الإقـرار أن المـادّة المصدرية التي تترجم لعالمنا وترسـم ملامح شخصيته وحياته تبقى قليلة شحيحة محدودة الجوانب التي تعرضت لها.

٢ـ الروض المعطار ص ٤٣٥.

٣ـ شجرة النور الزكية ج ١ ص ١٥٨.

٤ـ غاية النهاية ج ٢ ص ٢٨٠.

٥ـ نقله عياض عن عمر الصقلي. ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٦.

٦ـ سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٥٤٥.

٧ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠.

٨ـ المعيار ج ١ ص ٣٢٨.

٩ـ الإكمال لابن ماكولا ج ٧ ص ٨٠.

١٠ـ الإكمال لابن ماكولا ج ٧ ص ١٨٩.

١١ـ تاريخ الإسلام للذهبي ج ٢٩ ص ١٦٠؛ الديباج المذهب ج ٢ ص ٣٣٧.

١٢ـ التشوف ص ٨٧.

١٣ـ نقله عياض عن ابن عمار. ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٧.

١٤ـ جذوة المقتبس ص ٤٩٨.

إمامًا في كلّ علم[1]، من أحفظ النّاس وأعلمهم[2]، اشتهر ذكره، وانتشر علمه[3]؛ بل إنّ هناك من سمّاه بعالم المغرب[4] وبإمام وقته[5]، كيف لا وهو المتفنّن في كلّ علم؟! فإن عددته من المقرئين، كان من جملة من يُقرئ القرآن بالسّبعة ويجوّدها[6]، وقد تُرجم له في طبقات القرّاء باعتباره قارئًا[7]. وإن عددته من الحفّاظ[8]، وجدته في مقدّمتهم، مستوعبًا جامعًا لحفظ المذهب، مضرب المثل في الحفظ، يُستغرب إن قيل فلان أحفظ منه[9]. وإن عددته من المحدّثين، وقد تُرجم له في طبقات المحدّثين[10]، فهو ثقة[11] الثّقات، حتّى كان يقال الثّقة هو أبو عمران[12]، مع جمعه لحفظ حديث النّبي -صلّى الله عليه وسلّم- ومعرفته بمعانيه ورجاله وجرحهم وتعديلهم، إضافةً إلى السّند العالي فيه[13]. وإن عددته من المفتين، فقد كان يستفتيه العامّة والعلماء والقضاة والسّلطان. أما

١_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٧.

٢_ نقله ابن بشكوال عن ابن الطرابلسي حاتم بن محمد. الصلة ج ٣ ص ٨٨٢.

٣_ بغية الملتمس ج ٢ ص ٦٠٧.

٤_ تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١٠٩٧.

٥_ بغية الملتمس ج ٢ ص ٦٠٦.

٦_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٦.

٧_ ترجم له الداني في كتابه المفقود "طبقات القراء" حسب ما نقل غير واحد؛ وابن الجزري في غاية النهاية في طبقات القراء ج ٢ ص ٢٨٠؛ والذهبي في معرفة القراء الكبار ج ٢ ص ٧٣٧.

٨_ ترجم له الذهبي في تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١٠٩٧.

٩_ ترتيب المدارك ج ٨ ص ١٠١.

١٠_ المعين في طبقات المحدثين ص ١٢٦.

١١_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٦.

١٢_ المعيار ج ٣ ص ٢٦٨.

١٣_ يروي صحيح البخاري عن شيخه القابسي عن أبي زيد محمد بن أحمد المَرْوَزي عن محمد بن يوسف الفِرَبْري عن البخاري حسب ما أورده عياض. راجع: مشارق الأنوار على صحَاح الآثار ج ١ ص ١٠. كما يرويه عن شيخه الأصيلي، عن المروزي، عن أبي أحمد محمد بن محمد بن مكي جميعًا عن الفربري عن البخاري. راجع: فهرس ابن عطية ص ٦٥.

في الفقـه، فيكفـي أن نقول إنّه كان فقيه أهل وقته وحافظ المذهب المالكيّ[١] بشـهادة كلّ مـن لقيه وعلى رأسـهم القاضي أبـو بكر الباقـلانيّ[٢]. وإن قلت هو أصـوليّ[٣]، فقد كان نافـذًا في علم الأصـول[٤]. كما يرجّح اشـتغاله بالكيمياء، حيث رئـي في تركته الكبريت الأحمـر[٥]. كلّ هـذا مع الورع التّام والهيبـة والوقار[٦] والتّواضع الـذي جعله -وهو من جملة الفقهاء المشهورين- يجلس حين دخوله العراق في مجالس العلم كأنّه طالب في بداية مسـيرة تحصيله، وأنزلـه المكانة المتقدّمة عنـد العامّة والخاصّة، وعنـد الحاكم والمحكوم، وليس أدلّ على منزلته عند العامّة من هرعهم إليه عند كلّ نازلة وملمّة، وعند السّـلطان مـن قصّـة الطّبيب اليهوديّ الذي بعث به المعزّ إليه في مسـألة، فطرده، وأمر بصبغ طرف عمامتـه كـي يعـرف، وكان غير معلّم بعلامـة اليهود لمنزلته من السّـلطان، فعـاد الطّبيب اليهوديّ مفزوعًا إلى المعزّ ليشهد تلك الشّهادة الدّالة على منزلة أبي عمران الكبيرة بقوله: "والله يـا سـيّدي ما ظننت أنّ بإفريقيّة ملكًا غـيرك إلّا يومي هذا، ولقد وقفت بين يديك في حال غضبك الشّـديد، فما أدركني الفزع، ولا أصابني من الرّعب ما أصابني في يومي هـذا. فأجابـه المعزّ مؤكّدًا تلك المنزلة: إنّما فعلت ذلك لأريك عزّ الإسـلام وهيبة العلماء وما ألبسهم الله من شعائر الأولياء لعلّك تسلم[٧]".

١_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٦.
٢_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٦.
٣_ معرفة القراء الكبار ج ٢ ص ٧٣٧.
٤_ ترتيب المدارك ج ٧ ص ٢٤٧.
٥_ الفروق للقرافي ج ٤ ص ١٩٤.
٦_ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦٠.
٧_ معالم الإيمان ج ٣ ص ١٦١.

العبرة

إنّ قيمة الفكر والعلم تظهر في مدى ارتباطه بالواقع مجتمعًا ودولةً، فلا يمكن للعالم أو المثقف أو بالأحرى المفكّر والفقيه أن ينعزل بفكره وعلمه عن العمل الميدانيّ، وألّا يسعى لاستثمار رصيده الفكريّ والعلميّ لتسريع سيرورة تطوّر مجتمعه وأمّته وإصلاحهما، وينتظر في المقابل من النّاس أن ينصّبوه عمدةً في مجال نظريّ قاصٍ لا يتّصل بهم ولا يلمسونه في معاشهم بأيّة صورة من الصّور، هذا من الناحية.

من ناحية أخرى نعتبر من سيرة أبي عمران أنّ قيمة أيّ إنسان في الحقيقة ليست فيما عاشه من محن وأحداث أليمة كالغربة أو الطرد أو المنفى أو الظّلم أو التّعسف السّياسيّ، بل بما حمله من سلاح في مواجهتها جميعها، وتمكّنه أوّلًا من صنع ذاته، وثانيًا من بثّ بذرة التّغلب عليها وقهرها؛ لذلك مهما واجهتك من أحداث، ومهما بدا الوضع كارثيًّا، فآمن دائمًا بأنّه بمقدورك بذر بذرة التّغيير في محيطك مهما كان صغيرًا، في تلاميذك إن كنت معلّمًا، وفي مستخدميك إن كنت صاحب ورشة، وفي زملائك إن كنت أجيرًا، وفي أهل حيّك إن كنت فاعلًا جمعويًّا أو سياسيًّا أو دينيًّا، وفي أولادك وزوجتك وإخوتك وأمك وأبيك، فلعلّ الله يجعل الإصلاح والتّغيير المنتظر والانقلاب على كلّ الألم والظّلم والتّهميش والطّغيان والسّلطويّة والاستبداد الذي عانيت منه على يد أحد بذراتك. لذلك لا تتوقّف عن التعلّم والتّعليم، لا تتوقّف عن التّربية، لا تتوقّف عن البذر، والأهمّ ألّا تتوقّف عن الإيمان.

الإمارات الزّناتيّة المغراويّة/ اليفرانيّة[1]

عرف المغرب الأقصى ابتداءً من مطلع القرن الرّابع الهجريّ تفكّكًا في البنى السّياسيّة التي تشكّلت بصورة عضويّة وطبيعيّة بعد استرجاع البلاد لاستقلالها السّياسيّ عن الخلافة الأمويّة بدمشق عقب ثورة ميسرة المضغريّ، والتي لم يفلح أيّ منها -وخاصّة الأدارسة بما أنّهم امتلكوا من المقومات ما يفوق غيرهم- في التّخلّص من النظام الاجتماعيّ والسّياسيّ القبليّ، والتّحوّل إلى نظام الخلافة الإسلاميّة ومؤسساتها الإداريّة على غرار ما تحقّق في المشرق وفي الأندلس، كما عرف المغرب أيضًا انحلالًا كبيرًا على مستوى العصبيّات القبليّة الكبرى التي دخلت مرحلة الانشطار القبليّ بعد أن كانت تحدّد ملامح البلاد السياسيّة وتؤثّر في موازين القوى بها.

وقد جاء هذا نتيجةً لعدّة عوامل، منها الدّاخلي كوصول تلك البنى السّياسيّة لمرحلة الضّعف والانحلال والهشاشة التّنظيميّة نتيجةً لانهيار نظام الأحلاف القبليّ الذي اعتمدت عليه في قيامها، ومنها ما هو خارجي، ونقصد هنا على التّحديد التّدخّلات العسكريّة الفاطميّة التي ابتدأت مع دخول الدّاعي إلى سجلماسة عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م، واستمرّت متواترةً إلى عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م تاريخ نهاية حملة بولكين بن زيري، والتّدخّلات الأمويّة التي اعتمدت سياسة مغايرة للسّياسة الفاطميّة قامت على اليد الممدودة واستئلاف قلوب شيوخ القبائل والأحلاف بالعطايا والمنح وبتذكية النّزاعات بينهم حسب المصلحة في أفق التّحكّم في مقدرات البلاد عبرهم، والتّصدي بهم للأطماع الفاطميّة في المغرب، الأمر الذي أدى إلى استنزاف القوى القبليّة الفاعلة في البلاد وتشتّتها بين المعسكرين وفق ما تمليه الضّرورة والمصلحة القبليّة الضّيّقة[2].

١_ قدم ابن خلدون جردًا لتاريخ القبيلتين من القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس الهجريين. راجع تاريخه ج ٧ ص ١٥ وما يليها.

٢_ تعرّضنا إلى بعض من أوجه ذلك عند تناولنا الحديث عن الأدارسة والمكناسيين وبني واسول.

في ظـلّ هـذه الظروف برزت قوّة قبليّة جديدة سـتلعب دورًا فعّـالًا في تاريخ المغرب الأقـصى ابتداءً من القرن الرّابع الهجريّ/ العـاشر الميلاديّ إلى قيام المرابطين في منتصف القـرن الخامس الهجـريّ/ الحادي عـشر الميلاديّ، هـذه القوة هي مغـراوة، وبالأخصّ فرعها الكبير الحاكم بنو خزر.

شـغلت مغـراوة إلى جانـب قبائل زناتيّة أخـرى أبرزها بنو يفرن ومكناسـة وجراوة، المجال الواقع ما بين واد الشّلف ونهر ملوية، وقد تصارعت فيما بينها على مناطق النّفوذ، ما أدى إلى تقسـيم للمجال بينها، شـغلت فيه مغراوة إلى جانب بني يفرن المنطقة المحيطة بمدينة تلمسان، وأسّست بها مدينة بني خزر.

أمّـا عـن زعامة القبيلـة، فقد تولّاهـا خزر بن حفص بـن صولات بـن وزمار مطلع القرن الثّاني للهجرة، ثمّ تولّاها بعد موته ابنه محمّد، وأسّس بتلمسان إمارةً قبليّةً صغيرةً بالتّحالف مع بني يفرن أصحاب المدينة، وفي عهده وصل إدريس بن عبد الله إلى المغرب، ورأينـا في ترجمتـه كيف بايعه محمّد بن خزر هذا وقومه، وسـلّمه تلمسـان، ودان بدعوته ودعوة ابنه إدريس بن إدريس بعده، وبقيت السّـلطة السّياسيّة والرّوحيّة بولاية تلمسان وأمصارهـا قائمـةً للأدارسـة رغم كلّ المشـكلات البنيويّة التي كانـت تعانيها، ومغراوة خلال تلك الفترة غير قادرة على القيام بأيّ فعل سـياسيّ إلى أن ظهر الفاطميّون، وبدأوا بالضّغط على المنطقة عسكريًّا انطلاقًا من عام ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، الذي شهد حملةً عسكريةً قادها عروبة بن يوسف الكتاميّ، ثمّ بواسطة العميل الفاطميّ الأشهر مصالة بن حبوس المكنـاسي عامل تاهرت، الذي حمل على عاتقه كسر شـوكة القبائل الزّناتيّة وعلى رأسـها مغـراوة، فاصطدم بهم عام ٣١٢هــ/ ٩٢٤م، وكانت النّتيجة قتل مصالة على يدي محمّد بـن خـزر، وانهزام جيشـه، وقـد كان هـذا الانتصار عاملًا أساسـيًّا في تشـجيع ابن خزر

عـلى المبادرة ومهاجمة تاهـرت قاعدة التحركات الفاطمية بالمغرب الأوسـط، فاسـتطاع الاسـتحواذ عليها، ولم يكتفِ بذلك، فقام بتوسـيع عملياته العسـكريّة مسـتهدفًا مناطق النّفـوذ الفاطميّ إلى أن اسـتطاع السـيطرة على كامل إقليم الـزّاب عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، بعد أحداث كثيرة اضطرّ في بعضها إلى التّراجع إلى المغرب الأقصى.

في العدوة الشمالية كان الخليفة الأمويّ عبد الرّحمن النّاصر يراقب ما يجري في المغرب باهتمام بالغ، ويخطّط لاستغلاله لمصلحته سياسيًّا وإستراتيجيًّا، فنراه يحتلّ مدينة مليلة عام ٣١٤هـ/ ٩٢٧م سنتين قبل إعلانه الخلافة عام ٣١٦هـ/ ٩٢٩م، ثمّ يتبعها باحتلال سبتة عام ٣١٩هـ/ ٩٣١م، معلنًا بذلك رسـميًّا بداية الـصّراع الأمويّ الفاطميّ على المغرب. ثـمّ دعـا محمّد بن خزر – كما فعل مع باقي زعماء المنطقـة– إلى الدّخول في طاعته، فأجابه ابن خزر، وعمل على بثّ الدّعوة الأمويّة في مناطق نفوذه، وهكذا ستصبح مغراوة تابعةً للأمويّين وحجرة عثرة أمام التّوسع الفاطميّ نحو الجهات الغربيّة من المغرب الكبير.

وبالعمـوم فقد اسـتمر الـصّراع محتدمًا بين عمـلاء الأمويّين من مغـراوة بقيادة محمّد بـن خـزر وعمومتهم بني يفرن بقيـادة يعلى بن محمّـد من جهة، وبين عمـلاء الفاطميّين عـلى اختلافهم بين مكناسـيّين وكتاميّين وصنهاجيّين في مرحلة أخـيرة من جهة أخرى، مـع الإشـارة إلى أن بني خزر وبني يفرن قـد اضطرّوا في أكثر من مـرّة لتحويل مواقفهم والانحياز للفاطميّين وفق ما تمليه الظّروف وتحوُّل موازين القوى، وبقوا على حالهم هذا إلى أن حلّ عام ٣٦٠هـ/ ٩٧١م، وفيه سيسـتطيع المغراويّون إلحاق الهزيمة بالصنهاجيّين وقتل زعيمهم زيري بن مناد وإرسال رأسه إلى قرطبة.

وبالقدر نفسـه الذي انتشـى به المغراويّون بقتل الزّعيم الصّنهاجيّ الكبير كان عليهم أن يدفعـوا ثمـن فعلتهم على يدي ابنه، فما إن تولى الأمير الجديـد المتعطّش للانتقام لأبيه زعامـة قبيلتـه، حتى دشّـن حملةً شـعواء بدعـم من الخليفـة الفاطمـيّ المعـزّ أواخر عام

٣٦٠هـ/ ٩٧١م للانتقام لأبيه، فألحق بمغراوة هزيمةً كبيرةً، وقتل وأسر منهم عددًا كبيرًا، حتّى أنّ أميرهم محمّد بن الخير بن محمّد بن خزر سيقدم على الانتحار في المعركة أنفةً من الوقوع في أسر الأمير الصّنهاجيّ، وقد كانت هذه الحملة الشّعواء سببًا في إقصاء مغراوة وبني يفرن من مواطنهم بالمغرب الأوسط ولجوئهم إلى المغرب الأقصى، حيث سيأسّسون تحت الحماية الأندلسيّة إمارات في أهمّ المناطق التّجاريّة والحضاريّة بالمغرب مستغلّين تفكّك البنى القبليّة والسّياسيّة القديمة. ولنعرض سريعًا لهاته الإمارات:

الإمارة المغراويّة بفاس

يمكن تسميتها بمغراوة الشّمال، وهي أكبر الإمارات وأقواها، أسّسها زيري بن عطية بن عبد الله بن محمّد بن خزر رأس زناتة وأكبر أمرائها ورجل الأمويّين الأوّل بالمغرب والقائم بأعمالهم فيه، بعد استيلائه على فاس عام ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م بدعم عسكريّ أندلسيّ واتخاذها عاصمةً لملك امتدّ في بعض الأحيان من السّوس الأقصى إلى الزّاب، وقد انتقلت الإمارة بعد موت زيري الذي كلّفته محاولة الاستقلال بالبلاد عن الحماية الأندلسيّة حياته عام ٣٩١هـ إلى ابنه المعزّ الذي زامن حكمه وجود أبي عمران بفاس، ورغم أنّ المصادر تتحدّث عن عهد مستقرّ عرفته فاس مع المعز، فإن هذا الاستقرار لا يمكن فهمه وتقديره إلّا على ضوء ما كانت تعرفه البلاد وقتذاك من فتن وخطوب جسام وفقدان للسّيادة والاستقلال.

وبعد وفاة المعزّ في تاريخ اختلف في تحديده بين عامي ٤١٧هـ و٤٢٢هـ انتقلت الزّعامة لابن عمّه حمامة بن المعزّ بن عطيّة، وقد عرف عهد هذا الأمير مجموعةً من الأحداث، كسقوط الخلافة الأمويّة بالأندلس نهائيًّا، واستقلال الإمارة المغراويّة رسميًّا -ولأوّل مرّة بعد محاولة المؤسّس زيري بن عطيّة- عن الحماية الأندلسيّة، ودخول مغراوة في حرب ضد بني يفرن كلّفتها خسارة فاس لخمس سنوات كاملة. وعلى العموم فإن

الاضطراب كان السّـمة البارزة لفترة حكم حمامة الذي توفّي في تاريخ اختلف في تحديده اختلافًا كبيرًا أدناه ٤٣١ هـ وأقصاه ٤٤٠ هـ.

خلف حمامة ابنه دوناس، وسيواجه الأمير الجديد منافسة من ابن عمّه حماد بن معنصر قبل أن يصفو له الجو بموت الأخير، وتذكر المصادر أن دوناس كان على عكس سـابقيه رجل علم وحضارة، فدفع بمسـيرة التّقدم والحضارة، وبنى بفاس المسـاجد والحمّامات والفنادق وسوّر الأرباض، وعلى العموم كان عهده عهدًا مزدهرًا على أكثر من صعيد إلى أن وافته المنيّة عام ٤٥١ هـ أو العام الذي يليه.

غـير أنّ المكتسـبات التي حقّقها دوناس سينسـفها صراع مريـر على الحكم بين خلف ولدَيْه، الفتوح الأمير الشّرعيّ، وأخيه الأصغر الطّامع في الحكم عگيسة، وما يزال اثنان من أبواب فاس يحتفظان لنا باسمي الأميرين وصراعهما على العرش الذي استمر ثلاث سـنوات قبل أن يحسـمه الفتـوح الذي لم يهنأ بظفره طويلًا قبـل أن تصله أخبار تهديدات المرابطين الزّاحفين من الجنوب، الأمر الذي سـيدفعه للتنازل عن السّـلطة لابن عمّ أبيه معنـصر بـن حمّاد بن معنصر بن المعزّ عام ٤٥٧ هـ، وسـيفني الأمـير الجديد حياته محاولًا صـدّ الموج المرابطـيّ، قبل أن يختفي في ظروف غامضة عـام ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٨ م بعد ثلاثة أعوام حافلة بالصّراعات والحروب، ويستولي المرابطون على فاس في العام نفسه، قبل أن يعـودوا إليها مـرّةً أخرى، ويبيدوا من بها من المغراويّين، ويمحـو إمارة مغراوة إلى الأبد من الخريطة السياسيّة المغربيّة. ويعتبر المؤرخون قضاء المرابطين على المغراويين قضاءً على حكم مستبدّ جاهل عانت منه البلاد[1].

١ ـ وقـد توسّـعنا أكثر في الحديث عن الإمارة المغراوية بفاس في ترجمـة إدريس الأزهر، وربطناها بمدينة فاس وما عرفته من أحداث قبل قيامها وبعد زوالها.

الإمارة المغراويّة بسجلماسة

وهذه أوّل إمارة مغراويّة بالمغرب، أسّسها خزرون بن فلفول بن خزر بعد زحفه على سجلماسة وقتله لآخر أمراء بني واسول عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م، قبل أن يرثها عنه -في التّاريخ المؤكّد أنّه كان قبل عام ٣٦٩هـ- ابنه وانودين، وسيكون عهد وانودين هذا حافلًا بالأحداث، بدايةً بفراره من سجلماسة أمام حملة بولكين بن زيري قبل أن يعود إليها عام ٣٧٣هـ، ثمّ إعلانه الاستقلال عن الحماية الأندلسيّة مقتديًا بزيري بن عطيّة قبل فراره عنها كعادته إلى أن عفا عنه الأندلسيّون، وأعادوها إليه مرّةً أخرى عام ٣٩٠هـ. ثمّ توّج ذلك كلّه باستبداده بأمره بعد ضعف الخلافة الأندلسيّة، وسيطرته على إقليم درعة لضمان التّحكّم التّام على شرايين التّجارة الصّحراويّة، ودخوله في صراع عسكريّ مع مغراوة الشّمال بدايةً من عام ٤٠٧هـ، واستيلائه على بعض أملاكها كمدينة صفرو وجميع قصور ملوية.

وعلى العموم فقد كان وانودين رجلًا ماكرًا، متحلّيًا بالصّبر وإحسان استغلال الفرص، فوصلت إمارة بني خزرون أوج قوّتها واتساعها في عهده إلى أن توفي في تاريخ لم تحتفظ لنا المصادر به.

ثمّ انتقل حكم هذه الإمارة الغنيّة المزدهرة إلى ابنه مسعود الذي سكّ باسمه دنانير ذهبيّةً، ولن يكون لمسعود من اسمه نصيب كبير، حيث سيداهم المرابطون إقليم درعة عام ٤٤٥هـ، ويقتلونه، ويدخلون عاصمته سجلماسة في العام الموالي مرّةً أولى بقيادة عبد الله بن ياسين، ثمّ مرّةً ثانيةً سيبيدون خلالها من بها من مغراوة. وبحلول عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م سيستخلص المرابطون جميع المناطق الأخرى التّابعة لبني وانودين في صفرو وملوية، ويكملون عمليّة تصفيّتهم سياسيًّا وقبليًّا[1].

١ـ وقد تعرّضنا للحديث بشيء من البسط عن تاريخ إمارة بني خزرون في كتابنا أمير الصحراء {اليسع بن سمغو}، وربطناها بمدينة سجلماسة وما عرفته من أحداث قبل نشوئها وبعد زوالها.

الإمارة المغراويّة بأغمات

تأسّست هذه الإمارة كشأن مثيلاتها بعد نزوح مغراوة إلى المغرب، غير أنّنا لا نعرف شيئًا عن حيثيّات تكوّنها ولا عن فصول تاريخها، ومرجع ذلك صغر الإمارة وعدم لعبها لأيّ دور سياسيّ مؤثّر، واكتفائها بدور الوساطة التّجاريّة بحكم وقوعها على أحد أهمّ طرق القوافل القادمة من سجلماسة ودرعة في اتّجاه شمال جبال الأطلس الكبير. وقد محيت هاته الإمارة على أيدي المرابطين عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م كحال أخواتها، ولقي أميرها لقّوط بن يوسف بن عليّ المغراويّ حتفه بعدها بعامين في إحدى المعارك ضدّ المرابطين، بعد لجوئه إلى بني يفرن أمراء تادلا.

إضافةً إلى هذه الإمارات الثّلاث يحتمل أنّه قد قامت بالسّوس إمارة رابعة، كوّنها مقاتل بن عبد الله (الخير) بن محمّد بن خزر، عمّ زيري بن عطيّة أمير مغراوة الشّمال، كما قد يستفاد من إشارة لابن حوقل[1]. وباستثناء جماعة قرويّة بإقليم تازة لم تبقَ بمغرب اليوم قبيلة تحمل اسم مغراوة.

إمارة بنو يفرن بشالّا وتادلا

اشتركت بنو يفرن ومغراوة، وهما أكبر فروع زناتة، تاريخًا وجغرافيا ونمط عيش ومصيرًا ونسبًا واحدًا أيضًا حسب النّظريّة السّلاليّة لدى ابن حزم وابن خلدون، إلّا أنّ هذه الأخوّة لم تمنعهما من الاختلاف سياسيًّا ومذهبيًّا في مراحل معيّنة، كما لم تمنعهما من الصّراع المستمرّ على السّيادة والتّقدّم، فكانا طوال تاريخهما لا يفوّتان الفرصة لهضم بعضهم بعضًا وإضعافه.

---

١ ـ ابن حوقل ص ١٠٧.

ولئن كانت حملة بولكين بن زيري عام ٣٦٠هـ هي من دفعت مغراوة غرب واد ملوية، فـإنّ جمـوع بني يفرن تفرّقت عقـب حملة جوهر الصّقليّ عام ٣٤٧هـ التي شـهدت مقتل أمير بني يفرن القويّ يعلى بن محمّد بن صالح وفرار ابنه يدّو بن يعلى إلى الصّحراء حيث بقي يترقّب ويسـتعدّ ويعمل طيلة الأعوام التّالية على إعادة لمِّ شـمل بني يفرن المشـتّتين بالمغرب، وتوطيد موقعه عبر كلّ الوسائل في مغرب طحنته التّقلّبات المناخيّة والكوارث الطّبيعيّـة والتّناحـرات السّياسـيّة والحمـلات العسـكريّة والأزمات الاجتماعيّـة النّاتجة عـن الصّراع الأمـويّ الفاطميّ على أرضـه، خاصةً وهو يقـود وراءه جحافل من البدو الرّحّل المسـتعدّين للنّهب والقتل والسّلب وشـنّ الغارات على المراكز الحضاريّة والغنيّة في سبيل إيجاد موطئ لهم في هذا المجال المضطرب إلى أن حلّ عام ٣٦٥هـ/ ٩٧٦م، وفيه سيوفد الأمويّون إلى المغرب جعفر بن عليّ بن حمدون الزّناتيّ وأخاه يحيى للقيام بالأعمال الأمويّـة به، فانضمّ إليهما يدّو بن يعلى كشـأن باقي الزّعماء الزّناتيّـين مؤكّدًا بذلك تبعيّته للأمويّين، وفي العام التّالي استطاع تطوير عمليّاته العسكريّة، فاحتلّ مدينة مكناسة عنوةً، وبعدهـا بسـنتين مدينة لواتة، وملك كثـيرًا من بوادي المغرب في إطـار صراعه مع رأس مغراوة زيري بن عطيّة منافسه الأكبر والأقوى على الرّياسة والزّعامة القبليّة بالمغرب.

ويبـدو أنّ الحاجـب العامـريّ لم يكن يثـق في يدّو، وكان يشـكّ فيه لما عـرف عنه من انتهازيّة وكثرة تقلّب، وأيضًا بسـبب انحياشـه إلى الحسن بن گنّون عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م بعد عودته من مصر، لذلك كان دائمًا ما يفضّل عليه عدوّه اللّدود زيري بن عطيّة ويقرّبه ويعتبره الرّجل الأوّل والأوفى للأمويّين بالبلاد.

ولم يكن يدّو من جهته ليخيّب شكّ ابن أبي عامر في صحّة ولائه، فنراه يستغلّ فرصة توجّه زيري إلى الأندلس للقاء ابن أبي عامر، ويحشد جموعه، وينقضّ على عدوة الأندلس مـن مدينة فاس، ويدخلها عنوةً عام ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، الأمـر الذي اضطرّ زيري للعودة

فورًا إلى المغرب، حيث ستجري بينهما عدّة معارك سيحسمها زيري بعد سنة، ويقتحم فاس على يدّو، ويقتله، ويحزّ رأسه، ويبعث به إلى قرطبة كما هي العادة.

انتقلت زعامة بني يفرن بعد مقتل يدّو إلى ابن أخيه حبوس بن زيري بن يعلى، ثمّ خلفه أخوه حمامة، وهو من تحيّز بقومه إلى شالّا (سلا) حيث سيستقرّ بهم ويكوّن إمارةً أحاطت بإمارة برغواطة ما بين سلا وتادلا.

وفي عهد أخيه وخليفته تميم بن زيري -الذي جعل من غزو البرغواطيّين والتّضييق عليهم عماد سياسته بحجّة الجهاد- بدأ الضّعف يدبّ في مغراوة بموت زيري وابنه المعزّ، وتولّي ابن عمّه حمامة بن المعزّ بن عطيّة الزّعامة، فانتهز بنو يفرن بقيادة تميم اضطراب أمر حمامة، وخاضوا ضدّه عدّة حروب انتهت بانهزام حمامة إلى وجدة، ودخول تميم فاس ومُلكها عام ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م، وقد كان تميم هذا -حسب تعبير ابن أبي زرع- رجلًا مصمّمًا في دينه، الغالب عليه الجهل، فنكب يهود المدينة بحيث قتل أكثر من ٦٠٠٠ منهم، وسبى نساءهم، واستولى على أموالهم. وبهذه السّياسة الصّارمة سيحكم تميم مدينة فاس سبع سنوات، قبل أن يرمّم حمامة صفوفه، ويقصد فاس في جموعه، ويستطيع استعادتها وإخراج تميم منها، فانقلب تميم مهزومًا إلى شالّا، وبقي بها إلى أن مات عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م.

في السّنوات التّالية التي لا نعرف عن تفاصيلها شيئًا تناوب على حكم الإمارة ثلاثة أمراء، هم: حمّاد بن تميم بن زيري الذي حكم ثلاث سنوات، وابنه يوسف الذي حكم إلى حدود عام ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م، ثم آل الأمر في الأخير إلى عمّه محمّد بن تميم بن زيري الذي كان عليه مواجهة المدّ المرابطيّ الذي قضى عليه وعلى إمارته عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م.

لم يعد اليوم بالمغرب قبيلة بهذا الاسم، وإن كانت بعض بطونها كمرنيسة باقيةً بإقليم تاونات.

مصادر الكتاب ومراجعه

١) القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم (العد المدني).

٢) أبو عمران الفاسي حافظ المذهب المالكي، بحوث ندوة علمية، مجموعة أساتذة، دار الأمان للنشر والتوزيع – الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٠.

٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي (ت نحو ٣٨٠هـ)، مكتبة مدبولي – القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٩١.

٤) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة – الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٩.

٥) الأحكام السلطانية، أبو يعلى الفراء (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية – بيروت، طبعة ٢٠٠٠.

٦) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، دار المعرفة – بيروت ١٩٨٢.

٧) أدب المفتي والمستفتي، ابن الصلاح الشهرزوري (ت ٦٤٣هـ)، تحقيق موفق عبد الله عبد القادر، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤٠٧/ ١٩٨٦.

٨) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أبو العباس المقري (ت ١٠٤١هـ)، مجموعة محققون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٣٩/ اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات المتحدة، طبعة ١٩٨٠.

٩) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد الناصري (ت ١٣١٥هـ)، تحقيق جعفر الناصري،

محمد الناصري، دار الكتاب – الدار البيضاء ١٤١٨/ ١٩٩٧.

١٠) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، الأمير ابن ماكولا (ت ٤٧٥هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠.

١١) أنوار البروق في أنواء الفروق، شهاب الدين القرافي (ت ٦٨٤هـ)، عالم الكتب، بدون طبعة وبدون تاريخ.

١٢) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ابن أبي زرع الفاسي (ت ٧٢٦هـ)، دار المنصور للطباعة – الرباط ١٩٧٢.

١٣) البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي (ت نحو ٣٥٥هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.

١٤) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ابن عميرة الضبي (ت ٥٩٩هـ)، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٩.

١٥) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي (ت نحو ٦٩٥هـ)، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة – بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٣. (بالنسبة للجزء الأول والثاني).

١٦) بيوتات فاس الكبرى، ابن الأحمر (ت ٨٠٧هـ)، الرباط ١٩٧٢.

١٧) تاريخ ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر – بيروت، الطبعة ١٤٢١/ ٢٠٠١.

١٨) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٣/ ١٩٩٣.

١٩) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢/ ٢٠٠٢.

٢٠) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ)، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٩.

٢١) تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية - بيروت، بدون تاريخ.

٢٢) تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩/ ١٩٩٨.

٢٣) ترتيب المدارك، القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، عبد القادر الصحراوي، محمد بن شريفة، سعيد أحمد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، الطبعة الثانية ١٩٨٣.

٢٤) التشوف إلى رجال التصوف، ابن الزيات التادلي (ت ٦١٧هـ)، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب - الرباط، الطبعة الثانية ١٩٩٧.

٢٥) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار البلنسي (ت ٦٥٨هـ)، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة - لبنان، ١٤١٥/ ١٩٩٥.

٢٦) الجامع الكبير (سنن الترمذي)، أبو عيسى الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦.

٢٧) جذوة الاقتباس، ابن القاضي المكناسي (ت ١٠٢٥هـ)، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط ١٩٧٣.

٢٨) جـذوة المقتبـس في تاريخ علماء الأندلس، أبـو عبد الله الحميديّ (ت ٤٨٨هـ)، تحقيق بشـار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي – تونس، الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

٢٩) جمهـرة أنسـاب العرب، ابن حـزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق عبد السـلام هارون، دار المعارف – مصر، طبعة ١٩٦٢.

٣٠) جنـي زهرة الآس في بناء مدينة فاس، عـلي الجزنائي، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية – الرباط، الطبعة الثانية ١٤١١/ ١٩٩١.

٣١) الحلـل الموشـية في ذكر الأخبـار المراكشـية، لمؤلف مجهول، تحقيق سـهيل زكار وعبـد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء الطبعة الأولى ١٩٧٩.

٣٢) درر الحكـم، أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق يوسـف عبـد الوهاب، دار الصحابة للتراث – طنطا، الطبعة الأولى ١٩٩٥.

٣٣) الديبـاج المذهـب في معرفـة أعيـان علـماء المذهب، ابن فرحـون (ت ٧٩٩هـ)، تحقيق محمد الأحمدي، دار التراث للطبع والنشر – القاهرة، بدون تاريخ.

٣٤) الذخيرة في محاسـن أهل الجزيرة، ابن بسـام الشـنتريني (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب – ليبيا/ تونس، الطبعة الأولى ما بين ١٩٧٨ و١٩٨١.

٣٥) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ)، تحقيق محمد بنشريفة وإحسان عباس وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – تونس، الطبعة الأولى ٢٠١٢.

٣٦) روايـات الصحيح ونسـخه «دراسـة نظريـة تطبيقية»، جمعة فتحـي عبد الحليـم، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث – الفيوم، الطبعة الأولى ٢٠١٣.

٣٧) الـروض المعطـار في خبر الأقطـار، الحميري (ت ٩٠٠هـ)، تحقيق إحسـان عباس، بيروت ١٩٨٤.

٣٨) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسـان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٠.

٣٩) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

٤٠) شـجرة النـور الزكية في طبقـات المالكية، محمد بن محمد مخلـوف (ت ١٣٦٠هـ)، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

٤١) شـذرات الذهـب في أخبـار مـن ذهـب، ابـن العـماد الحنبـلي (ت ١٠٨٩هـ)، تحقيـق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير – دمشق/ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

٤٢) صبح الأعشـى في صناعة الإنشـا، أبو العباس القلقشـندي (ت ٧٢١هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٢٢.

٤٣) صحيـح الترغيب والترهيـب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعـارف للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١/ ٢٠٠٠.

٤٤) الصداقـة والصديق، أبو حيـان التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـ)، تحقيـق إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر – بيروت، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٩/ ١٩٩٨.

٤٥) الصلة، ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ)، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٩.

٤٦) صورة الأرض، ابن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ)، ليدن، الطبعة الثانية ١٩٢٨.

٤٧) طبقات الفقهاء، الشيرازي (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٠.

٤٨) طوق الحمامة في الألفة والألاف، ابن حزم القرطبي (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٧.

٤٩) غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، تحقيق برجستراسر، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.

٥٠) الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض)، القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٢/ ١٩٨٢.

٥١) فتاوى البرزلي (جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام)، أبو القاسم البرزلي (ت ٨٤٤هـ)، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٢.

٥٢) الفتاوى الفقهية الكبرى، ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ)، المكتبة الإسلامية.

٥٣) فقه النوازل على المذهب المالكي (فتاوى الإمام أبي عمران الفاسي)، محمد البركة، إفريقيا الشرق – الدار البيضاء، طبعة ٢٠١٠.

٥٤) فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، عبد الله المرابط الترغي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية – تطوان، الطبعة الأولى ١٩٩٩.

٥٥) فهرس عبد الحق ابن عطية (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣.

٥٦) فهرسة ابن خير الإشبيلي، ابن خير اللمتوني الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ)، محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩/ ١٩٩٨.

٥٧) قطعة من كتاب عيون الإمامة ونواظر السياسة، أبو طالب المرواني (ت ٥١٦هـ)، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف وصلاح محمد جرار، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠١٠.

٥٨) قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، ماي ١٩٥٥.

٥٩) الكامل في التاريخ، أبو الحسن ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية – بيروت، طبعة ١٩٨٧.

٦٠) لسان العرب، جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

٦١) مسالك الممالك، الإصطخري (ت ٣٤٦هـ)، ليدن ١٩٢٧.

٦٢) المسالك والممالك، أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤/ ٢٠٠٣.

٦٣) المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (ت ٦٠٣هـ)، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، الطبعة الأولى ٢٠٠٢.

٦٤) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض، طبع ونشر المكتبة العتيقة – تونس ودار التراث – القاهرة، بدون تاريخ.

٦٥) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أبو زيد الدباغ (ت ٦٩٦هـ)، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ١٩٦٨.

٦٦) المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٢٠هـ) تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين – القاهرة ١٤١٥/ ١٩٩٥.

٦٧) معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) دار صادر – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥.

٦٨) معجم السفر، أبو طاهر السِّلَفي (ت ٥٧٦هـ)، تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الفكر – بيروت، ١٩٩٣.

٦٩) معرفة القراء الكبار على معرفة الطبقات والأعصار، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق طيار آلتي قولاج، إستنبول ١٩٩٥.

٧٠) المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس الونشريسي (ت ٩١٤هـ)، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية – الرباط ١٤٠١/ ١٩٨١.

٧١) المعين في طبقات المحدثين، شمس الدين الذهبي، تحقيق همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان – عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٧٢) مقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق عبد الله الدرويش، دار يعرب، الطبعة الأولى ١٤٢٥/ ٢٠٠٤.

٧٣) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، شمس الدين الرُّعيني المالكي (ت ٩٤٥هـ)، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٤١٢/ ١٩٩٢.

٧٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أبو المحاسن بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٢.

٧٥) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ)، مكتبة الثقافة الدينية –

القاهرة، طبعة ١٤٢٢/ ٢٠٠٢.

٧٦) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، أحمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ) تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت، طبعة ١٩٩٧.

٧٧) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

٧٨) الوفيات، ابن قنفذ القسنطيني (ت ٨١٠هـ)، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣/ ١٩٨.

الفهرس

إهداء ٧
تقديم ١١
السّرديّة ١٥
وفاته ٧٩
مؤلّفاته ٨٠
من شعره ٨٢
شخصيّة فذّة ٨٤
العبرة ٨٧
الإمارات الزّناتيّة المغراويّة/ اليفرانيّة ٨٨
الإمارة المغراويّة بسجلماسة ٩٣
الإمارة المغراويّة بأغمات ٩٤
إمارة بنو يفرن بشالّا وتادلا ٩٤
مصادر الكتاب ومراجعه ٩٧